سلسلة مملكة الخطايا ١

أنا هُنا لأبقى

"حين لا يصبحُ هناك منفذٌ فسيُقاتِلُ الإنسانُ كوحشٍ مسعور"

ثقة يوسف حامد

سلسلة مملكة الخطايا1

للكاتبة: ثقة يوسف

أنا هُنَّا لأبقى

" حينَ لا يُصبِحُ هنالك مَنفذٌ فسيُقاتِلُ الإنسانُ كوحشٍ مسعور"

أُعلِمُكم أنَّ هذه الكلماتُ والأحداثُ والشخصياتُ من وحي الخيال المحض وأيُّ تشابُه بينها وبين واقعنا هو مُجردُ مصادفة..

هي ليست مصدرًا للمعرفة التاريخية ولا للحقائقِ المنطقية، إنها خيالٌ عن عالمٍ غير عالمِنا ومكانٍ غيرِ مكانِنا..

كُتِبت بكلِ حُبٍ كي يُبحِر أحدهم كما أبحرتُ أنا.. في بحرِ الخيال..

خريطة القارة الغربية

المدينة
الجنوبية
إينور
ساميريا
آرسيا
مدينة
النحاس
منطقة آدور
الحدودية
المدينة
العسكرية
رينيلي
فاري
زايرن
المدينة
الساحلية
المدينة
التجارية
مملكة كوتسيريا

مقدِمَة

لطالما كنتُ أتساءلُ عن شيءٍ لم تستطع حتى أوسعُ الموسوعاتِ العلمية أن تجيب عنه.. هذا العالمُ المضطربُ قد كان أكثر فوضوية قبل ألفي عام من الآن، حل الجفافُ واشتعلت حروبٌ دامية بغية الماءِ والأراضي المخضرة وكنتيجة لذلك مات الأبرياء بأعدادٍ لا حصر لها.. لم تكن تلك حربًا اعتيادية ككلِ حربٍ أخرى ولم تكن نتائجُها متوقعة البتة.. كانت النتائج مخلوقاتٍ سوداء، مظلمة وتواقة للدماء بشكلٍ خاص.. سحرٌ ظلامي بدأ بالانتشار حيثما خطت المخلوقاتُ السوداءُ بأقدامها وقد بدى أن سحر البشر النوراني الواهي لم يكن ندًا لهذه الوحوش التي ظهرت فجأة.. ما عادت الحرب بين البشر تشغل أحدًا بعدها وإنما قد سلبت المخلوقات السوداء نحوها كل الانتباه، دمرت وقتلت ولعنت البشر بوحشية حتى عانوا ما لم يعانوه قبلًا.. بعضُ العجائز كانوا يبكون طوال الليلِ وهم يتمتمون بالاعتذارات قائلين أنَّ سبب وجود هذه المخلوقات هي خطيئة البشر بقتلهم لبعضهم بعضًا، ولكن حتى هؤلاءِ الشيوخُ الذينَ تابوا وتبرؤوا من القتل أصابهم أذى المخلوقات السوداء في النهاية..

لاحقًا بعدما جاء الخلاصُ صار يُطلقُ على تلك المخلوقاتِ اسمُ "الشياطين".. وقد جاء الخلاص على يد الملك الأولِ "زاهار الموحد" الذي وحد ممالك الشرقِ تحت راية مملكة واحدة ليحارب الشياطين، طردهم، أبعدهم وتمكن من انشاءِ حاجزٍ لا زال حتى اليومِ باقيًا مستهلكًا قوي سحرية هائلة للحفاظِ عليه حائلًا بينَ مملكتنا ومملكة الشياطين..

ثم ما لبثَ البشر أن نجوا من المصيبة حتى عادوا لقتلِ بعضهم مجددًا بعد سنينَ قليلة، لم يتب أحدٌ ولم يتعلمِ الدرسَ أحد.. ونحنُ لا زلنا حتى اليومِ نخوض حربًا متفرقة ضد بعضنا من دون أن نتوقفَ برهة لنجيب حتى عن أبسطِ الأسئلة..

مِن أينَ جاء الشياطينُ في المقامِ الأول؟!

الفصلُ الأول

الثَائِر

قيلَ لي ذات مرة: "أنت ستغيرُ كثيرًا في هذهِ البلادِ ومن بعدك ستغيرُ ذريتك كُلَّ شيء.. أرى قوانينا تُهدَم، ومعاناة تُولدُ مِن رحم الظلامِ، وقلوبًا تُطهِرُ ذاك الظلام.. مملكة الشياطين التي تُخيفُنا جميعًا ستسقُط على يد آلِ إدوين ذاتَ يوم.. "

ولم أدرك أنَّ ذلك كانَ أصدقَ ما قيل لي في حياتي..

اعترضت الشمسُ على الضياء ومجددًا مالت استعدادًا للمغيب، هبت الرياح الباردة بعد نهار حار ولكن لا سبيل للراحة مُطلقًا وسط نقاش أثرناه مرارًا بلا طائل يرجى..

_مشكلتك أنك شاب طموح جدًا، تسعي لتمتلك ما لن يكون لك، أحيانًا يتوجب علينا أن نتخلى عن أحلام تفوق طاقاتنا يا إيفان، أنت لن تصبح جنديًا أبدًا.. أبدًا!

_كلا!

رفضتُ ونطقتُ رفضي في وجهه وأنا أضرب المنضدة بقبضتي التي اصطبغت باللون الأحمر القاني، كلماته بدت كالسهام وكل حرف نطقه جعلني أحترق في قعر الجحيم.. أفكاري التي تتصارع داخل نفسي تكاد توصلني إلى الجنون، هل أخضع أم أرفض؟ هل أتبع ذلك الإنسان الذي لطالما أردت دائمًا أن أكونه أم أتراجع خائبًا تحت ستار الخوف؟ لم أعش قط إلا لأكون جنديًا شجاعًا يدافع عن الضعفاء ويحمى الأبرياء، لا يهمني الموت، لا يهمني ألمي ولا حتى قلبي الذي بات ينبض كما لو أنه في سباق، لن أترك والدي يرسم لي مسار حياتي فذلك الضعف لا يلائمني إطلاقًا!

_أقسم أنني سأتبع حلمي حتى لو كلفني ذلك حياتي!

أقسمت بقوة وعيناي تغوصان عميقًا في عيني أبي حيثُ بات الكره ينسج خيوطه فيهما، فرد الأخير صارخًا:

_ستقتل وتُقتل! ستسفك الدماء وسط بحور من المعاناة تلتف حولك كما الغريق، أتظن أن الحرب لعبة أيها الولد المندفع الثائر؟ الحرب غباء وشر محض!

ـــسأذهب رغم كل شيء فهذا ما ولدت لأجله.

ـــإذًا فالتمُت كجرذ قذر..

صرخ أبي وعروقه الخضراء أصبحت بارزة من تحت جلده المترهل بفعل طيات الزمن ثم واصل مرتجفًا:

ـــفالتمُت في أرض المعركة بلا أحد يقدر جهدك ولا أحد ليتذكرك؛ فضعيف مثلك لن يصبح أبدًا نورًا يحمي البلاد! وأي بلاد تلك التي ستحميها وأنت أفشل إخوتك وعاري الذي لن يُمحى! فالتذهب ولتحل عليك اللعنة أينما توجهت ولتعلم أنه لم يعد لديك هنا شيء.. في "رينيلي" ليس لديك أهل أو إرث أو مال .. طالما أنت في الجيش فلست إبني!

كان يأخذ أنفاسه بصعوبة ويداه ترتجفان كورقة في مهب الريح، كنتُ أعلم أنه ملاذي الذي سيحتويني مهما فعلت لكنه واليوم بدت عيونه السوداءُ قاسيتين للغاية ولا طيف رحمة أو حب ضئيل يغوص فيهما، لم يبدو وكأنه ينظر إلى ابنه الأصغر بل كان كمن ينظر إلى كلب ضال، كلب أراد طرده وإبعاده عنه بأية طريقة.. لطالما اختار لي كل خطوة كنت أخطوها طيلة حياتي، لم يكن لدي حق الاختيار قط.. كنت بيدقًا في رقعة الشطرنج الخاصة به.. لكن ليس اليوم! حتى لو آل الأمر لأن يتبرأ مني فسأذوق طعم الحرية أخيرًا.. أنا حر بما يكفي لتحديد مصيري بنفسي.. أريد أن أعيش الحياة التي رغبتُ فيها! وعندما أصبحُ شخصًا عظيمًا لن يرفُضني والدي!

ـــأنا كبير بما يكفي لتحمل عواقب خياراتي يا أبي..

حاولت أن أقنعه لكنه قاطعني بجفاء محض قائلًا:

ـــلستُ أباك!

ـــإن كان هذا ما تريده فلا بأس، لك ما تريد يا سيد إدوين..

همست وأنا أنحني أمامه وألتقط قبعتي التي سقطت أرضًا، كانت الرياح العابثة التي دخلت إلى الغرفة عبر النوافذ الضخمة باردة للغاية وإنساب شعاع ساقط من شمس المغيب لينعكس على وجه أبي الغاضب مظهرًا كل تفاصيل عنفوانه، عميقًا في عينيه الكئيبتينِ

رأيت نظرة انكسارٍ حاول أن يواريها خلف غضبه لكنها لم تكن لتخفى عليّ.. في ظهره الذي انحنى همًا وفي يديه اللتين ترتجفان بخفوت وفي كل تفاصيل شخصه رأيت ندمه وندمي غير المعلن على هذا الفراق.. ندم لن يسمح له شخصه المغرور بإظهاره.. وخلف والدي الواقف وبعيدًا معلقة على الحائط استقرت رسمة بألوان باهتة فوضوية، رسمة صغيرة قديمة لأب يحتضن ابنًا في شعره سواد الليل.. رسمة رسمتها عندما كان كل شيء بخير.. قبل أن أصبح ثائرًا وأرى طريقي.. فقط عندما كنت مجرد طفلٍ صغير..

أسأندمُ؟

أسنلتقي مجددًا؟.. سأندم..

فتحتُ عيني وأنا مرهق للغاية، راقبت طيفًا ضئيلًا من شعاع الشمس كان يتسلل عبر النافذة ليلقى بظلاله عليّ، رأسي كان يغمرني بألم فظيع وعيناي الغائرتان كانتا مبللتين بالدموع مرة أخرى..

ـــكابوس ثانيةً؟

سأل الفتى الذي يجلس أمامي ببطء، كان فراشه مقابلًا لفراشي في السكن وعيناه الخضراوان دائمًا ما تحدقان بي بقلق كل صباح، كل يوم، عقب كل كابوس عن أبي منذ أن وطئت قدماي الأكاديمية، كان اسمه "هارولد كاستِل" وقد كان أفضل صديق من الممكن لأي شخص امتلاكه.

ـــبخير.. إنني بخير..

همستُ له وأنا أحاول الوقوف مترنحًا، مغمورًا بالدوار، ومأسورًا بالرغبة العارمة في البكاء والنحيب.. لازلتُ أشتاق إلى ذلك الأب القاسي الذي أفاض عليّ يومًا في بدايات حياتي حنانه.. وبعد عدة محاولات كنت قد استطعت ارتداء ملابسي وحذائي والوقوف أمام المرآة أراقب تفاصيل شخصي الذي بت لا أعرفه مطلقًا.

ـــأنا أتبع حلمي الآن.. مرت أربع سنوات على ذلك اليوم فلماذا إذًا لا ينفك يزورُني في كل ليالِيَّ المتعبة، يفترض أن أكون سعيدًا بنفسي لكنني بت لا أجد للسعادة طريقًا.. وكأنني لم أعد ذلك الشخص الذي استمات وراء حلمه يومًا..

ـــلم تتغير يا إيفان.

تحدث هارولد مقاطعًا أفكاري الداخلية كما لو كان قد تمكن من قراءة ما بذهني..

ـــأتذكر؟

قالها مبتسمًا وهو يقف بقربي، يغلق أزرار سترته الزرقاء القاتمة ويجمع شعره الطويل برباطٍ مطاطي، ثم أردف وعيناه الخضراوان تلمعان بحياة:

ـــعندما جئتَ إلى هنا أول مرة كنت مليئًا بالطاقة والحيوية للغاية ولم تبدو كمن يبحث عن طريقة للالتحاق بالجيش لكسب رزقه بل بدوت متفانيًا مُتحمسًا كمن نذره رحم أمه للجيش، لم تكن مميزًا بقوى ولم تمتلك سحرًا حتى لكن ما رأيته فيك منذ تلك الأيام وحتى هذا اليوم هو شخص قوي وذكي للغاية، شخص بمبادئه يستطيع تغيير مصير هذه البلاد برمتها.. اسمع يا إيفان..

قال ثم توقف لبرهة ملتقطًا أنفاسه كمن يستعد لقول أمر مهم للغاية، ثم همس:

ـــالسحر الخاص بي، سحر الاستبصار قد يبدو مفيدًا في معرفة تحركات الأعداء القادمة في الحروب فحسب؛ ولكن لأن عدد المستبصرين قليل جدًا فلا أحد يعرف كل قدرات هذا النوع من السحر.. يا إيفان أنت ستغير كثيرًا في هذه البلاد ومن بعدك ستغير ذريتك كل شيء.. أرى قوانينا تهدم ومعاناة تولد من رحم الظلام وقلوبًا تطهر ذاك الظلام.. مملكة الشياطين التي تُخيفُنا جميعًا ستسقُط على يد آلِ إدوين ذاتَ يوم..

كلماتُه القليلة أرعبتني للغاية؛ أولئك الشياطينُ الذين يبعدُهم عنَّا حاجزٌ يفنى السحرة النورانيون فقط للحفاظِ عليه قائمًا لأن التعويذة التي أنشأته شديدة القوة تمامًا بالقدر الذي يتناسبُ مع ما تَسجُنه.. مع أولئك الشياطينِ الذين قُهروا بفضل "زاهار الموحد" حاكمنا القديم الذي لم يبق له أثرٌ على هذه الأرض سوى تعويذة حاجزه.. أسيتفوقُ أبنائي على

صنيعه ذات يومٍ كما وصف المُستبصرُ ويكونُ فناءُ مخلوقات الظلامِ على أياديهم؟! إن هذا لهو ضربٌ مِن خيال!

كان ذلك اليوم هو يوم تخرجنا من أكاديمية الفرسان، يوم صيفي مشمس في شهر يونيو قد حمل معه نهاية لدراستنا وشقائنا لأربع سنين متواصلة، هارولد _المستبصر الذي حدثني بكلماته المبهمة تلك_ لم يعاود الحديث عنها مجددًا واحترامًا مني لقوانين المستبصرين فلم أعاود السؤال..

"القاعدة هي الا تسأل مستبصرًا ما لم يخبرك هو بنفسه"

هكذا كان يردد أستاذنا في الفصل الأول ولم نعرف أبدًا سبب ذلك المنع، لكن الجهل الضئيل يضايقني، ونظراتِ الآخرين نحوي تخنقني .. عدم امتلاكي لأي سحر على الإطلاق هو ما جعلهم _بما فيهم والدي_ منذ البداية يحتقرونني.. لكني لم أكن لأسمح لحقيقة كوني وُلِدتُ عاديًا في عالمٍ ملئ بالقوى السحريةِ بأن تقيدني فأنا لستُ حبيس ما لا أملكه ولن امتلكه..

بهدوء مهيب أطلت الشمس فوق الساحة الكبيرة التي تتوسط الأكاديمية، من حولها انتشرت القاعات والمكاتب التي لم يكن فيها أحد اليوم؛ فقد كان الجميع طلابًا وطالباتٍ معلمين ومعلماتٍ ومسؤولين ذوي شأن في الدولة يتوسدون مقاعد المدرجات بحماسهم وسعادتهم ويرمقون طلاب الدفعة الخامسة والعشرين في "أكاديمية لايون" العسكرية المصطفين في الساحة بنظرات ملؤها الفخر..

"عهدنا بالدموع والدماء.. عهدنا كسر لعنة الشقاء.. عهدنا لا شياطين لا أعداء.. بالوفاء بالفداء .. للوطن للحياة .."

بصوت جهوري واحد ردد الطلاب النشيد الوطني بأوجه علتها الابتسامة الصادقة، كان هذا يوم قسمهم بالولاء للوطن وانتقالهم إلى الحياة الفعلية على أرض المعركة، يوما حمل نتاج جهودهم وتعبهم وتحملهم لكل القواسي طيلة السنوات الماضية.. في قلبي كنت أرمق أسر

الطلاب بحسرة فلا أحد فيما عداي بحسب علمي وقف وحيدًا يوم تخرجه، حسبت أن أحد إخوتي الثلاثة قد يأتي، أو أن والدي الذي لا أنفك أحنُ إليه بين الفينة والأخرى قد يأتي.. لم أدرك طيلة حياتي كم كان جادًا في قرار مقاطعتي إلَّا في تلك اللحظة، تلك اللحظة التي وجدت نفسي فيها وحيدًا أردد القسم ماثلًا أمام الفارس الملكي "لوثيار ألفرين" ولا أحد ليفخر بي إطلاقًا.. لا أحد ليقول لي:

عملت بجد..

فخور بجهدك..

هنيئا التخرج..

لا أحد..

ــردِد خلفي!

قالها الفارس الملكي لوثيار وعيناهُ ضيقتانِ إثر ابتسامتِه ثم أردف:

ــأقسمُ بالدموع والدم.. بالروح والقلب.. بالوفاء والفداء.. للوطن، للملك، للتراب، للضعاف، وأن أنصر الحق أينما كان، أقسم بكل ما هو عزيز عليّ أن أنصر الحق والعدل وأنشر الأمان..

فرددتُ من خلفه القسم بقلب لا يعرف للفرح طعمًا، لقد انتظرت هذه اللحظة لأعوام لكن والآن وقد نلتها فإنها تبدو باهتةً جدًا كما لو أن بريقها قد انطفأ.. أم أن قلبي هو الذي انطفأ؟

ترى هل كان يجب علي أن اختار عائلتي واترك حلمي؟

هل ما أفعله صواب؟

ــ إيفان إدوين.. أعلنك رسميًا جنديًا في مملكة كوتسيريا.

قال لوثيار وصفق الحشد وانحنيت بأدب ثم خطوت مبتعدًا.. لا احتفالات ولا تهنئة لم تكن تعنيني، لم أبحث عن صديقي هارولد ولم أريد ازعاجه ولم أكن من كمية اضطرابي على

استعداد للحديث حتى، ولأنه ليس لدي مكان في سكن الأكاديمية بعد التخرج فقد حملت شهادتي التي إياها مُنِحتُ وسرت بخطاي الواسعة المسرعة في شوارع العاصمة رينيلي أفكر أنا ونفسي والرياح في مستقبلي المجهول..

الشمس الدافئة قد مالت للمغيب بوداع.. في مثل هذا الوقتِ قبل أربعة أعوامٍ مضت كنت قد غادرت المنزل، كنت أدرس وأعمل حتى أوفر لنفسي المصاريف، بالرغم من أن اولئك لم يسألوا عني، لم يتفقدوني أو يفتقدوني فإني الآن سائرٌ لمقابلة الذين تبرؤا مني ذات يوم.. إخوتي الثلاثة وأبي..

_هذا متهور جدًا.

فكرتُ ريثما تردد صدى صوت طرقاتي على البوابة الكبيرة أمامي، منزلي أو المنزل الذي كان سابقًا منزلي لم يتغير منذ غادرته.. إنه بطريقة ما ليبدو كما لو أن الزمن لم يمر عليه إطلاقًا، الجدران الحجرية المطلية بالأزرق الباهت، النوافذ الزجاجية الست التي تطل من الطابق الثاني والحديقة الأمامية ذات أشجارُ السوّان المكسوة بورق مائل للبرتقالي المخضر.. كل شيء ظل كما هو.. ترى هل ظلت قلوب ساكني هذا المنزل الفسيح باردة كجدرانه؟

سمعت صوت قفل البابِ يُدارُ ببطء فاهتز قلبي لانفتاحه، من خلفه أطل شاب في الرابعة والعشرين ذو شعر مسودٍ كأنه الليل وعينين حادتين كالسيف.. إنه أكثر أخ يشبهني شكلًا.. وأبعدهم عني روحًا.. "آرثر إدوين"

_آه..

همس وما لبثت أن ارتسمت على محياه ابتسامة خبيثة للغاية قبل أن يردف أخيرًا:

_الحشرة قد عادت إلى المنزل أخيرًا.. لكن الأفعى قد استولت على جحرِها.

ثم أفسح ليّ المجال لأدخل فخطوتُ للداخل على مضض مُجاهدًا لكيلا أرد على ترهاته بترهاتٍ مثلها فأنا لم آتِ للشجار!

_أخبر أبي أنني راغبٌ في محادثته.

قُلت له بصوت جاهدت حتى لا يخرج مرتجفًا فلم يرد أخي وسار مبتعدًا صاعدًا السُلم الفسيح، كان يمشي مشية المغتال الفخور بنفسه ومظهره..

_نرجسي ليس إلّا!

همستُ متذمرًا..

_أبي ليس راغبًا برؤية وجهك..

قال آرثر بحلول الوقت الذي عاد فيه وعيناه تفيضان شماتة فالتزمتُ الصمت ولكنه لم يصمت..

_قال بأنه ليس لديه ابنًا يدعى إيفان وأن حشرة مثلك لا يمكن أن تكون ابنه..

كلماته كانت في طريقها لتمحو أملي الضئيل، كنتُ وأنا أرتجف قد فقدتُ كل ذرات المنطق وأضحى غضبي الذي يغلي كقدر ملئ بالمياه يتزايدُ ويحرق جوفي بمرارة فلم أشعر بنفسي إلا وأنا أنفجر في وجهه صارخًا:

_أقسم أنك إن لم تصمت الآن فسأنسى أنك أخي الأكبر يا آرثر! أتفعلون بي كل هذا فقط لأن لدي حلم قد اتبعته ولم أعش مقيدًا مثلكم!

_اصمت!

صرخ ملئ صوته وواصل:

_لأنك قد اتبعت حلمك ولم تعش مقيدًا فعليك أن تعاني! لست أفضل منا في شيء! أنا وجايد وأليكس جميعنا امتلكنا أحلامًا لكن لم يسمح لنا أبي بالسير خلفها، لن تكون أفضل منا.. إطلاقًا!

أظنني وفي تلك اللحظة قد فهمت، فهمت لماذا يعاملني آرثر كما لو أنني جرذ قذر وليس شقيقه الأصغر المدلل.. ذلك لأن أحدًا من إخوتي لم يمتلك الشجاعة الكافية ليكون حرًا..

_لا تستحقُ أن تموت أمي لأجلك..

قالها آرثر وصوته يختنق، سمعتُ مقالته وقلبي يحترق.. لماذا لسنا كباقي الأُسر؟ ألا يفترض به أن يعانقني الآن ويهنأني على تخرجي؟ ألا يفترض..

سمحتُ لقدميَّ أن تطلقا لركضهما العنان وفي لمح البصر كنتُ قد تجاوزت آرثر الواقف وتخطيته صاعدًا السلالم.. أحسست بقدميه الراكضتين خلفي وبغضبه يتطاير كالشرار لكنني لم أكن لأغادر هذا المنزل اليوم إلا بعد أن أرى والدي..

مع كل خطوة أخطوها كان خشب المنزل أسفل قدمي يهتز بصوت الخطوات الراكضة، في آخر الممر الطويل في الطابق الثاني كان مكتب أبي الذي إعتاد الوجود فيه وصوب ذلك المكتب كنت قد توجهت.. بدا الأمر كنفق مظلم في نهايته نطفة من ضوء، وقد أحسست أن ذلك الباب الذي يكمن أبي خلفه هو ضوئي.. مددتُ يدي بغية فتحه بتعجل إلاّ أنَّ صوتين يتناقشان بعلو قد أوقفاني ومن خلف الباب المُغلق استمعتُ لذلك الحوار المبتور.

ــما تفعله لا يشبهك يا أبي! عُد إلى صوابك فالذي ينتظرك هناك هو ابنك وليس شخصًا غريبًا!

قالها الصوت الأول بحزن، كان صوت أخي الذي سأعرفه ولو غبت عنه مئة عام؛ فهو ذلك الأخ الوحيد الذي أحبني يومًا.. إنه "أليكس إدوين" أكبر إخوتي عمرًا..

ــأليكس لا تتدخل؛ فالذي لا يطيعني ليس ابني ولن أكون مهتمًا به حتى لو مات في هذه اللحظة!

قالها أبي بصوتٍ أكثر إرهاقًا مما عهدته، ثم أردف:

ــأريد أن أنساه يا أليكس، أريد أن أنسى أن لي ابنًا يُدعى إيفان لذا لا تناقشني.

أحسستُ بخطوات أليكس تقترب من الباب، وبالرغم من أن آرثر الواقف خلفي لم ينبس ببنت شفة إلا أنني شعرت بنظراته المنزعجة تغمرني وأنا أتراجع للخلف، لم أعد أريد إلا الهروب إلى مكان بعيدٍ جدًا، بعيدًا عن أي شيء وكل شخص، لن أستطيع النظر في عيني أبي وهو الذي أضحى يبغضني كل هذا البغض.. ليتني لم آتِ.. ليتكِ يا أمي حية ولم تغادري الدنيا لتنجبيني.. أنا التائه بين شخصه ودفء عائلته ووسطهما لم أنل أيَّ شيء..

وسط أفكاري التي أصابتني بالصداع القاسي رأيت أليكس الذي خرج من المكتب بوجهٍ عابس يختزن بؤس العالم وقد تبدلت ملامحه للدهشة تمامًا عندما رآني واستحال محياه إلى ابتسامة هادئة قبل حتى أن ينفذ عقلي قرار هروبه..

_أليكس..

همستُ بخفوت فقال وهو يتقدم ليطوقني بذراعيه

_هُش.. هُش.. لا زلتَ أخي الأصغر، لا زلتَ أخي..

وكأنه بكلماته تلك قد نفض الأذى بعيدًا.. بعيدًا جدًا ليحرمه قدرته على أن يطالني، ووددتُ لو أبقى مختبئًا في حضنه إلى الأبد، تمامًا كما كنتُ أفعل حينما كنت طفلًا في الخامسة يبكي خائفًا من كل شيء.

الفصلُ الثانِيُ

الطَبِيبُ الغَرِيبُ

في ذلك اليوم أخذني أخي إلى الحديقة الوطنية المملوءة بأشجارٍ اكتست شيئًا من سوادِ الليل، أضواءُ المصابيح المتلألئة كانت قد سلبت انتباهي لتلك الدرجة التي ما عدت أحس معها بالوقت ونحن جالسان، صامتان، وكأن الصمت المطبق الذي حاوطنا كان أبلغَ من الكلام..

_كل ما أريد معرفته هو لماذا؟ لماذا يكون العقابُ أكبرَ من الجريمةِ؟

قُلت كاسرًا حاجز الصمتِ وأنا أحاوطُ رأسيَ بيديَّ، أحسستُ بكف أخي توضعُ على كتفي وبصوته الهادئ يقول بعد طول صمت:

_قد يقطعُ الجلادُ عنق بريءٍ في بعض الأحيان وقد يجور القاضي في حكمه، لكن اسمع يا إيفان..

قطع كلماته، تنفس بصوتٍ مثقل بالهموم وزفر بعناء، ثم أردف بينما حدقتُ في عينيه العسليتين اللتين أصبحتا أكثر حدة وكآبة بعد كل تلك السنين:

_لقد فعلتَ ما لم يستطع أيٌ منا فعله، أنا وآرثر وجايد بعضُنا امتلك سحرًا جعله متفوقًا في مجال ما، كلٌ منا كان ليصبح شخصًا عظيمًا حقًا، لكنَّ الخوف.. والخوف المظلم الذي حاوطنا في سجنه هو ما جعلنا نفشل.. عندما أردتُ أن أُصبِح مُعلِمًا قال أبي "لا" في وجهي لأول مرة قائلًا أن التعليمَ لن يجعلك غنيًا، وأنا لم استطِع من فرط ضعفي أن أناقشه مجددًا.. عندما قال "لا" في وجه جايد الذي نشأ رسامًا مُنذ نعومة أظافره انتحبَ الأخيرُ طوال الليل ظنًا منه ألا أحد سمع بكاءه الذي مزق قلبي، أُجبِر الأخيرُ على أن يصبِح تاجر أسلحة رغم شخصيتِه الحساسة التي تبدلت وتغيرت حتى إنني ما عُدت استطيع التعرف عليه، خسر جايد خطيبته التي أحبها لأنها رفضت أن تعيش زوجة لشخصٍ تأتي أمواله مِن قتلِ الناس أساسًا.. أما آرثر فأنت تعلم، لقد كنتَ كبيرًا عندما قرر آرثر مواجهة أبي..

_أجل، كان آرثر ثائرًا للغاية، حاد الطباع صعبَ المراس كوالدي.. وأراد أن يُصبح باحثًا في النباتاتِ السامة لهوسه بها..

قُلت غير راغبٍ في إكمال جملتي المُرهِقة، فواصلَ أخي حديثه قائلًا:

ـــوقد ظنّ أن سِحر الأرض الذي ورثه من أبي سيعينُه، ولما رأي أبي فيه الثورة والعِناد فقد قمعه بكل الطرق وماتت روحُ ثائرٍ كان واعدًا للغاية.. ها هو الآن تاجِرُ مجوهراتٍ درس كلية التجارةِ النمطية تمامًا كأبي.. جميعنا يا إيفان لم نستطع التخلي عن العائلة مقابل الأحلام، وأنت الوحيدُ الذي كان شجاعًا كفاية لفعل ذلك، ولأجلٍ ذلك يا أخي أراد آرثر أن يُسقطك من على القمة، طوال هذه السنين الأربعة استمر بتعبئة رأس أبي بترهاتٍ كل يوم، جعله يكرهُك دون أن يفهم مقدار خطئِه حتى كاد يُعمِيه فقط لأنه يعلم أن أبي سيسامحك ويفتخر بإنجازاتك في نهاية المطاف، فمهما كان كبرياؤه فلن يقاطع ابنه لبقية العُمِر، وقد حمل آرثر كل البغضِ لك..

قال ثم اختنق صوته بغصةٍ كمن يجاهدُ حتى لا يبكي.. كان شابًا في أوائلِ ثلاثينياته يتحدثُ عن أسرتِه التي تمزقت وتشتت أمامه، لا هو قادِرٌ على الإحسانِ إلى أخيه الأصغر فينال قطاعةَ أبيه، ولا هو قادرٌ على إقناع أخيه الغارق في الظلامِ بالكف عن الكراهية..

ـــتلك الكراهية.. إن آرثر يوجهها في اتجاه خاطئٍ، لست أنت من يفترضُ به مُحاربتُه.

قال ثم صمت طويلًا حتى ظننتُه قد أنهى حديثه لكنه قد همس أخيرًا:

ـــيتوجب عليه كُرهُ ضعفه.. ومواجهته، لكن يا إيفان لا تكره آرثر لذلك بل أرشده.

في ذلك المساءِ تحدثنا كثيرًا، أشعرني ذلك بأنني لست إلا طفلًا في الخامسة أجلس رفقة أخي كما اعتدتُ دومًا، وجدت أن كل همٍ حملته في صدري قد غدا يتلاشى.. رويدًا رويدًا وبعيدًا جدًا..

ـــأليكس..

قلت له وأنا استقيمُ واقفًا، يداي تغوصان في جيوب معطفي وفمي تعلوه الابتسامة الهادئة، ثم أكملتُ وأنا أرى ملامحًا كخاصتي ترتسمُ على محياه:

ـــلن أزور المنزلَ قريبًا، لن ألتقى بجايد أو آرثر قريبًا لكنني سأحنُ إلى الماضي دائمًا، لم يكن ماضيًا سعيدًا ولم يعاملني أخوتي بلطف منذ كبرنا لكنني سأفتقدُ لطفك وسأفتقدُ أوامِرَ أبي الصارمةَ دائمًا..

ضحكتُ وأخذ أليكس يضحك، في عينينا كان كل واحدٍ منا يرى الأيام الماضية جلية أمامه، ولكم أشكرُ السماء أنها منحتني هذا الأخ الباسم كالربيع..

ــلن ألتقيك قريبًا وأعلم أن أبي سيغضبُ عليك إذا علم أنك قابلتنِي لكنني سأعود عندما أحملُ إنجازًا يجعل أبي فخورًا لتلك الدرجة التي لا يستطيع فيها رفض مقابلتي.. هذه الأسرة لن تُدمَر وسأُصلِحُها عندما يحين الوقت المناسب.. حتى ذلك الوقت عِش بحرية، لا تحمل همنا يا أليكس.. سافر، عالِج الأطفال، افعل ما تُحبه.. وحافظ على أبي بخيرٍ كما كنت تفعل دومًا، ثم جد زوجةً صالحة وسأكون موجودًا يومَ زفافِك.. ولا تشغل بالك بهذه الأسرة الصغيرةِ التي مَزقتُها..

كان يبتسم بهدوء حتى سمع آخر ما نطقتُ به، فتح فمه كمن يود الاعتراض على شيءٍ ما لكنه عزف عن التحدث أخيرًا.. رفع يده حتى استقامت قرب رأسه وضرب بقدمِه الأرضَ بقسوة، شعره البني كان يتطاير حاجبًا عينيه لكنه لم يمنعني من رؤية وجهه الذي أضحى بطريقة ما يبدو كما لو أنه قد ودعَ حِملًا ثقيلًا، كانت تلك أكثر تحية عسكرية تلقيتُها أهميةً في حياتي، استقمتُ ورفعت يدي وضربت الأرضَ بتقدمي، رددتُ التحيةَ ريثما نضحك على كل الهموم وورقة صغيرة أحكمتُ التمسك بها كان قد أعطاني إياها أخي قبل أن يغادر تاركًا إياي بلا أملٍ في لقائِه قريبًا.

ــيومٌ حافِل.

همست وأنا سائر، أعتصر بقبضة يدي تلك الوريقة الصغيرة..

"إلى إيفان إدوين.. الأخُ الصغيرُ المدلل.."

بدأتُ بقراءة تلك الكلمات بينما أخطو في الشارعِ الواسع المليء بالأشخاص السائرين جيئة وذهابًا، ابتسمتُ وأكملت عيناي متابعة الكلمات..

"طيلة فترة عملي في هذه المدينة لم أجد شخصًا أثق به أكثر منه، ذلكَ الشابُ اليافِعُ الواعِد الذي عملتُ معه والذي لا أضمن وجودك ــفي هذه الفترة الحرجة من بداية تعيينك ــ إلّا

معه، يُسعدني أن تُقيم معه لفترة وستُريحُ رأسك مِن همّ الإيجار مؤقتًا.. بحلولِ الوقتِ الذي ستكون قد وقفت فيه أمام مسكنِ هذا الشاب سأكونُ قد دبرتُ إعلامهُ بكلِ شيء، فالتلقي الطبيبِ لوين مالكومالِن"

لم يكن أخي ليقتنع إذا ما رفضتُ التعرف على صديقه الشاب ذاك وفكرة سكني معه، لأريح نفسي من صداعٍ زائد ومِن قلقٍ خفي بشأن احتياجي لمكانٍ يأويني فأنا الآن سائرٌ لمقابلةِ ذاك المدعو لوين.. ومرة أخرى أثبت لي أخي أليكس أنّهُ لم يتغير البته؛ لا زال يشعُر بهمّي حتى دون أن أُخبره..

آه هذا هو المنزل؟

وقفتُ في شارع ألقت عليه مصابيحُ الإنارة كثيرًا من الضوء في وسط عتمة بدايات الليل البارد، كان المنزلُ المكون من طابقين منزلًا عاديًا طليت جدرانه بلونٍ بني غامق وامتدت على طوله نوافذٌ زجاجيةٌ أكبر قليلًا من المعتاد، بحسب ما قال أليكس فإن هذه البناية المتواضعة هي أحد أملاكه التي لا أستغرب كونها كثيرة للغاية، فأخي إضافة إلى نصيبه العظيم من مال أسرتنا كونه الأخ الأكبر فهو قد ظل يعمل بجد طيلة السنوات الماضية في المستشفى الملكي وإني لأظنه قد أضحى نائب المدير أو ما شابه، ولعدم امتلاكه زوجة أو أبناءً ينفقُ عليهم فإنه قد لجأ لاستراتيجية معهودة في حفظ المال.. العقارات.. التي لا تستهويني هواية شرائها إطلاقًا..

فُتِحَ الباب الخشبي المصنوع من خشب عتيق يميل للحمرة عقب طرقاتي المتوالية عليه، من خلفه أطلَ شابٌ باسمٌ بهدوء، كان يرتدي قميصًا أبيضًا ذا أكمامٍ طويلة غير مُنظمٍ فُتحت أزراره العلوية بلا مبالاة، كان الشاب أطول مني ببضع سنتيمترات، شعره الأشقرُ قد انسدل بفوضوية ليغطي عينيه، ورغم ذلك فإنه لم ينجح في حجبِ لونهما الأزرق المتألقِ كالبحر، تلكما العينان الزرقاوان كانتا حادتين بصورة عكست جديةً وصرامة لا تتناسبُ وجمالهما إطلاقًا.. هل التقيتُ قبلًا ببشرٍ يحملُ وجهًا جادًا ومظهرًا فوضويًا كهذا؟ قطعًا لا..

ـــإيفان إدوين؟

سألني بصوته الخشن الذي يحمل نبرة لا هي مرحبةٌ بي ولا كذلك رافضة..

"أهو غير مبالٍ بي إذًا ؟"

تساءلتُ في نفسي وعقب ذلك أجبته ريثما أحاولُ جاهدًا أن أدرس تعابيره المعقدة:

ــنعم، يجدر بك أن تكونَ الطبيبَ لوين مالكومالِن.. تشرفنا.

أجبته ومَدَ الأخير يده مصافحًا إياي، صافحته وأفسح ليَّ المجالَ لأدلُفَ إلى الداخِل، صالة الاستقبال كانت بجدرانٍ بنيةٍ كذلك، ستائرٌ بلونِ الكراميل وأربعة كراسيٍ رفقة أريكة توزعت قبالة بعضها في منتصف الصالة، علقتُ معطفي قرب المدخل وذهبتُ لأجلس على أحد تلك الكراسي الوثيرة، وعندما جلستُ تذكرتُ من فرط التعبِ الذي أحسستُه أنني لم أرتح منذ وقت التخرج صباحًا، ولكم يحاوِلُ النعاسُ سحبي إلى أعماقِ عالمِه الآن! لكنني لم أكن لأستسلِم للنومِ في هذا المكانِ الذي تطالُه قدمي لأولِ مرة، من فرطِ حذري أو من فرطِ قلقي.. لا فرق.

لم يكن الشابُ واقفًا حيثُ تركتُه منذ ثانية بل غاب إلى داخلِ المنزل دونَ أن ينطِقَ ببنتِ شفة، بعضُ الوقت مرَّ وبضع دقائقٍ انقضت قبل أن يعود حاملًا بيديه صينية شاي ويجلس قبالتي واضِعًا إياها أمامنا على الطاولة، حدقتُ به ثم تحدثَ بنفسِ نبرتِه المُحايدة للغايةِ قائلًا:

ــأعتذرُ لعدم إعدادي للشاي مسبقًا رغم علمي بقدومك فقد عُدت توًا من العمل.

ارتبكت قليلًا وأنا أخبره بألا بأسَ لذلك، ثم أردفَ وهو يبتسِمُ:

ــمن الجيد أن ألتقي بالأخِ الأصغر للدكتور أليكس، فكما تعلم إن الدكتور شخصيةٌ مثيرة للاهتمام.

أزاحَ بيدِه بضع خصلات قد تمردن على عينيه ثمَّ واصل حديثه:

ــلا أعملُ منذ مدة طويلة ولم أكن لأمتلك فرصة لأعمل أو لأجدَ مسكنًا لولا الدكتور، إنني أحملُ امتنانًا عميقًا لعائلة إدوين ويسعدُنِي إقامتُكَ برفقتِي.

ــآه إقامتي هُنا..

قلتُ جملة مبتورة ثم تضاربتُ مشاعري بشأن إقامتي هُنا، لن يكون الأمرُ مُريحًا بالطبع لكنني الآن في بداية مشواري العملي مع أموالٍ قليلة للغاية ولا مكان آخر لي لأبقى فيه، إني لألعنُ ضعفي وقلة حيلتي وإتعابَ أخي معي دونما قدرةٍ مني لردِ جميله حاليًا، لكنني سأرده إليه يومًا ما بلا شك، أما الآن فمهمتي هي التعرفُ على شريك السكنِ الفوضوي هذا والذي يدل منزله حيث لا شيء موضوعاً في مكانِه على شخصيتِه..

_سأقيمُ هنا لفترة محدودة فحسب ريثما أستطيع تكوين نفسي جيدًا.

قلت مُتقطع الأنفاس بخفوت..

_العروسُ ستنزِلُ لتُقابلك بعد بضع دقائق، امنحها وقتًا لتُحضر نفسها..

ردّ لوين بتعابيرٍ تغمُرها الجدية مُتعارضًا مع حديثه الغير منطقي مما دفعني للانفعال قائلًا:

_أيُ عروسٍ أنا لم آتِ لِ..

لكنه بتر جُملتي ضاحِكًا بصوتٍ عالٍ قبل أن يواصل:

_إنك لتبدو مرتبكًا كخاطبٍ يخشى أن يُرفض فأردتُ أن أُلقي دُعابة، هدئ من روعك فأنت المتفضل عليّ، لا أنا!

عقبها رمى المفتاح في يدي ونهض وهو يمدُ ذراعيه ويتمطى بفتورٍ

_هناك ثلاث غرفٍ شاغرة في الطابق الثاني فلتختر ما يلائمُك أيها الضابط إدوين، أحضر أغراضك والبيتُ مِلكُك، اعذرني لكني مُتعَبٌ قليلًا.

وضح لي ثم توجه إلى الطابق الثاني لينامَ رُبما، لكم هو متقلب الطباعِ بين جدية ولا مبالاة وهزل، طبيبٌ غريب..

_لستُ ضابطًا بَعدُ، أنا مجردُ جندي..

تمتمتُ لنفسي ثم نهضت متنهدًا بفتور، عليَّ نقلُ أغراضي من سكن الأكاديمية غدًا لكن قبل ذلك ليس عليَّ إلا النومُ بعمقٍ اليوم.

الفصل الثالث

الجُرحُ المُميتُ

مضى بعضُ الوقتِ منذ ذلك الحين، أسابيعٌ اعتدت فيها على الإقامة مع الطبيبِ لوين، وعرفت خلالها كم هو شخصٌ حاذِقٌ وماهِرٌ في أداء عمله على الرغم من أنه قد تخرجَ منذُ عامٍ مضى ليس إلاّ، وأيقنتُ أثناءَ تناولِنا للعشاء سويًا كل ليلة أنه يمتلِكُ جانبًا مَرِحًا وساخِرًا كذلك، كان يسخرُ من أشياءٍ كثيرة، من السياسة، الطب، مني ومن نفسه أحيانًا، وما كان يلبثُ أن يُلقي أسئلة غاية في الجدية بينما يضحكُ بعبثية لا تتناسبُ وسؤاله إطلاقًا.. ولكي لا أُجن وأنا أستمع إلى أسئلة مثل "كيف ماتت أُمك؟" أو "لماذا لا يأتي الدكتور أليكس لزيارتك؟" من فمِ شخصٍ مغمورٍ بالضحك فقد عاملتُه على أنه مراهقٌ مندفع غريبُ الأطوار وليس على أنه شابٌ في الثالثةِ والعشرين يكبرني بعامٍ كامل!

أرهقتني الكثيرُ من النقاشات التافهة التي خضتها في كُل مكان، في المنزل مع لوين، في الأكاديمية مع أساتذتي الذين يستدعونني لأعاونهم في الشرح لبعض الطلاب الفاشلين بحجة أنني جيدٌ في الشرح! وكذلك في ساحات التدريب خارج المدينة التي أنهكت بدني أيما إنهاكٍ حينما نتدربُ فيها، وفي وسط تلك العجلة الدائرة ظللت أتحرقُ شوقًا لفرصةٍ ملائمة تأتيني لأُحققَ فيها إنجازًا يستحِقُ أن أفخر به.. شيئًا ما يجعلُني أُظهِرُ نفسي بعزة، وددتُ لو أُلقي بي في غِمارِ معركة هائجة وقيل لي أطلق لنفسِك العنان، سأُحقق حينها مجدًا لهو كفيلٌ بجعل والدي يعترِفُ بي كابنٍ له مرة أخرى.. ظللتُ أخطط لتلك الحروبات التي سأرمي بنفسي إليها بكل اندفاع وظلت الشهور تمضي بدون أن يلتفت أحدٌ إلى الخريجين الجدد الذين لا خبرة لهم ويستدعيهم للمعركة.

يقول هارولد الذي لا أنفك ألتقي به بين الفينة والأخرى في المناوبات المسائيةِ حول المدينة أو في التمامِ الصباحي في المقر ألا قائدًا سليمَ العقلِ سيستدعي جنودًا جُددًا أمثالنا ليرافقوه في حربه بلا خبرة واقعية في الحروب، شبابًا مندفعين لم يجربوا المأساة قبلًا ولا يعرفون للألم طعمًا في حينِ أن المُخضرمين موجودون!.. نحنُ سنُستدعى إلى معركة مهمة في حالة واحدة فقط.. إذا ما هُوجِمت مملكتُنا بغتة ولم يكن هناك جيشٌ قوي بالجوار للدفاع، عندها سيستخدِموننا كآخِر خيط أمل وهم يعلمونَ أننا خيطٌ قابلٌ للانقطاعِ في أية لحظة.

لم أكن لأعلَمَ أننا –الخيطُ الرقيقُ اليائس– سنُنادى لنُدافِع عن بلادِنا بهذه السرعة؛ فبعدَ نهارين من حديث هارولد جاءنا أمرُ استدعاء طارئ شَمِل الخريجينَ الجُدد وكُلَّ جنودِ الدفعتين السادسة والعشرين والسابعة والعشرين الذين هُم لم يحظوا بالخبرة العظيمَةِ في الحرب كذلك.. جميعُنا كُنَّا نَعلمُ أنها مَعركة خبيثة تلكَ التي تطلُبُ حتى من الضعافِ الالتحاق بها.. جمعُنا كنا نعلَمُ أن كثيرينَ ممن تنقُصُهم الخبرة الحربية لن يعودوا على أقدامِهم بل حتى لربما لا يَعودُ رُفاتُهُم.. وأنا وحدي مَن كان يأمل بأن يَعُودَ لا حيًا فقط وإنما حامِلًا لمَجدٍ عظيمٍ كذلك!

تحركَ الجيشُ مع أولِ خيطٍ لضوءِ الفجر الوليد، الفرسانُ كانوا على ظهورِ الخيلِ يسابقونَ الرياح، وثلاثةُ آلاف من المُشاةِ ظلوا يقاسون صعوبةَ المسير السريع وغبار الخيول الثائرةِ أمامهم.

_الأمرُ أشبه بالانتحار..

همستُ لنفسي وأنا أسير، مختنقًا بمشاعرٍ متضاربة، جزءٌ مني تخيل كُل سيناريو مرعِبٍ من الممكن أن يحدُثَ في هذه المعركة، أما الجزءُ الآخر فظل يرثى حياته بصمت.. عند التقدُمِ إلى الحرب لا يمكِنُكَ أن تأمُلَ العودة، لا يمكِنُكَ مصادقةُ جُندي آخر إذا ما أردت لقلبِكَ ألّا يُخلعَ مِن مكانه وأنا تقفُ في عزائِه، من السيئ حقًا أن تكونَ مُصابًا فقد تخسرُ أحدَ أطرافِك، من السيئ أن تفقدَ وعيك فقد لا ينتبِهُ لنبضك أحد، بالمجمل.. من السيئ الذهابُ للحرب! لكنني إيفان إدوين.. الكتيبة ١١٦.. الميسرة.. بقيادة الفارس الملكي لوثيار ألفرين.. كُنتُ قد ذهبتُ للحرب سائرًا إلى الهلاك.

"مملكةُ آيريا" تلك المملكةُ التي تتشاركُ معها حدودنا الغربية لطالما احتفظت بعلاقاتٍ متوترة مع مملكتنا؛ لربما يرجِعُ ذلك إلى أننا وفي ماضينا الغابِرِ قد كُنا مملكة واحدة حُكِمت بواسطة الملك "زاهار المُوحِد" وعندما ضعُفَ حُكم ابنه وخليفته على العرش فقد استغلَ المُتمرِدونَ ذلك وتسببوا بفصلِنا إلى دولتين غيرِ مُستقرتين، حسنًا كان ذلِكَ منذُ عهدٍ بعيد مضى لكنه وحتى اليوم ما زالَ يؤرِقُ الجميع.. ما انفكَ المتمردون جيلًا بعد جيل يثيرونَ

الشغب والمشاكل على الحدود، أمَّا اليوم فإنهم قد أضحوا يمثلونَ خطرًا عظيمًا يهدِدُ حدودنا.. تجمَعَ المتمرِدون مع قُطاعِ الطُرِق وحتى رِفقة مُجرمين محكومِين بالإعدام لينضموا كمرتزقة إلى جيشٍ صغير نظمتُه مملكةُ آيريا في الخفاءِ متظاهِرة بأنها لا تدعم الحربَ جهرًا واعدة المتمردين إياهُم بالحُريةِ كمُكافأة تحريضية على الحرب، الجيشُ الصغيرُ الذي استهانت به مملكتُنا في البداية قائلة أنه لن يُمثِلَ خطرًا علينا قد أضحى هو ملاكَ الموتِ الذي دمَّر بمنجله "قُرى آدور الحدودية" جميعها وعاث فيها فسادًا، هؤلاءِ المُلقَبونَ بالجيشِ الانتحاري قلائل، لكنهم يُقاتِلُون كوحوشٍ برية، ليس لديهم رغبة في الحياة وليس لديهم ما يعودونَ لأجلِه، ينوونَ النصر أو الموت.. فإمَّا موتُهُم أو موتُنا، نحنُ المتوارون خلفَ حاجز خوفنا من ألّا نعودَ لأهلنا مجددًا، لكن عدم العودة ما عاد يُخيفُني.. فأنا الذي عِشتُ تحت ظله لأربع سنوات كاملة.. فإمَّا انتصِرُ وإمَّا الفناء!

في الساعاتِ الأخيرة قبيل المغيب كُنا قد دخلنا إلى منطقة قُرى آدور، منطقة أُلقِي على بيوتها الرمادية المحترقة ضوءُ الغروب المحمرِ جاعِلًا إياها تبدو وكأنها تحترق مجددًا، تساءلتُ عن مدى فظاعةِ المنظَرِ حينما دُمِّر كُلَّ شيءٍ هنا ذات يوم بواسطةِ أيادي مُخربة لا تبغي إلّا الإفساد ما استطاعت.. بعضُ الجدران التي ما زالت تنتصِبُ واقفة قد انطبعت عليها آثارُ الدماءِ القانية التي تخصُ أُناسًا صعدت أرواحُهم إلى السماء غدرًا، مدنيون أبرياء لا علاقة لهم بالحرب، نساءُ وأطفال وعجائز لا قوة لهم لحملِ السلاح، أتساءلُ إذا ما كانَ هنالك شخصٌ ما قد نجى من هذه المأساة.. ثم مَن قد ألومُ أنا على فقدِ هذه الأرواحِ؟ هل هم المُعتدون سفاكو الدماء، أم أنه ملكُنا الذي ضحِكَ قائلًا ألّا خطر سيطالُ أحدًا، مُستهينًا بالسيوفِ التي جزّت أعناقَ مواطنيه.

تنهدتُ بأسى وما عادت قدماي قادرتينِ على الحراك، توقفتُ مُتسمِرًا في مكاني وأصواتُ الزملاءِ الذين يصيحونَ بي أن أتحرك ظلت تبتعِدُ عن وعيي وكأنها صمتت بغتة.. ها هُم الرجالُ مُعلقون مِن رقابِهم وجُثثهم الكثيرةُ قد استعمرتها الحشراتُ بطريقة وحشية، أصابعٌ مبتورة وعلاماتُ تعذيبٍ لا يجيزُ أيُ دستورٍ أن تُنفَذَ على بشري، الكثيرُ من الرؤوسِ التي نُثِرت في كُلِ مكان كحباتٍ من عنقودِ العنب القرمزي.. أولئك الجنودُ الذين لم يتحملوا المنظر الشنيعَ قد أفرغوا جُلَّ ما في بطونِهم بينما يصيحُ قادتُهم بهم ويشتمونَهُم، في النهاية لا

يُمكِنُك أن تتوقع من جندي أن يرى هذا ويظلَ كصخرةٍ جامدة، هم بشر.. ونحنُ بشر كذلك، أسيكُونُ هذا المصيرُ الذي لم نستطِع منعهُ من أن يطالُهم هو مصيرنا ؟

في تلك اللحظةِ أدركتُ مدى فظاعة الحرب، لا أحد قد نجى من هذهِ الإبادةِ الشاملة، تلك الإبادةُ التي كان بإمكاني منعُها.. كلا بل كان من واجبي كجنديٍ في الجيش الوطني منعُها..

"أُقسِمُ أن أحميهم، دائمًا وأبدًا.. لن أسمحَ لنفسي بأن أرى هذا المنظَرَ أمامي مجددًا.. لن أراهُ مجددًا.. لن أسمح بذلك.. لن أسمح.."

لا أعرِفُ لكم من الزمنِ ظللتُ أهذي في مكاني، لرُبما كِدتُ أفقِدُ عقلي حينها لولا تلك اليدُ التي ضربت كتفي مِرارًا وذلك الصوتُ الذي ظلَّ يصرخُ مُنادِيًا باسمي.. حينما خرجتُ من هاوية أفكاري استطعتُ أن أرى صاحب الصوتِ الذي لم يكن إلّا صديقي المدعو هارولد كاستِل والذي غمرتني دهشتي لكونِه هو الآخر قد أُستُدعِي إلى هذه المعركةِ مثلي.

كان هارولد جنديًا ضمن الكتيبة التي سارت وراءنا مباشرة، لم نستطع التحدُث كثيرًا لأن على كُلٍ مِنا السيرُ في موضِعٍ لا يقرُبُ من موضِعِ الآخر، حينما أقمنا المعسكر وضربنا خيامنا لنحظى ولو بقدرٍ ضئيلٍ من الراحة قبل اشتباكِ الغدِ المُهابِ والمُنتظر استطعتُ أن التقي بهارولد بعد طولِ بحثٍ عنه وسنحت لنا ــنحنُ الاثنان المفجوعانِــ فرصةٌ للتحدثِ مَعَ بعضِنا تحت ضوءِ القمر المُكتمِل ونحنُ نشتكي من وجبةٍ سيئة للغاية قُدمت لنا لتناولِها بعد طولِ عناء سفر..

ــيجبُ أن نرتقي إلى منصبٍ أعلى سريعًا، فكما تعلم إذا ما استمرينا في أكلِ هذا الطعامِ السيئ لفترة أطول سيلتصق جلدُنا بالعظم.

قال هارولد بنبرة مرحة وعيناه الواسعتان تلمعانِ بخضرة تحت ضوءِ القمر كأنهما عينا قِط.

ــنعم.. معك حق.

رددتُ ببرودٍ وأنا أحدق في طبقِ الحساءِ بَين يدي وأتنهد بخفوت، عندها تبدلت نبرة هارولد المرحة إلى نبرة أخرى هادئة للغاية وهو يقولُ مُحدقًا نحو القمرِ البعيد:

ـــإنك قد اخترت هذه الحياة بمحض إرادتك، لم يجبرك أحدٌ على أن تكونَ جُنديًا وإنما ضميرك هو ما حثك على ذلك.. لكن أحلامك قد اصطدمت بالواقِع اليوم، أنت ترى بوضوحٍ حقيقة الحرب الآن ولربما بطريقة قاسِية جدًا عليك.. لكن ما حدث لم يكن خطأنا نحن وليست كُلُّ رُوحٍ تُزهَقُ قد سُلبت بسببك، لست مُلامًا..

لم أجد نفسي إلّا وأنا أرمى طبق الحساءِ على الأرض لينسكِبَ هدرًا من فرط ما اجتاحنِي من غضب، انتصبتُ واقفًا وأخرجتُ مِن فيَّ كلماتٍ أحسبُها كانت صُراخًا في وجه صديقٍ لم يكن راغبًا إلا بالتخفيفِ عني..

ـــلا تُبرِر لي بحديثكَ المُنمِق هذا يا هارولد! نحن الجنود والحُماةُ ومِن واجِبنا أن ندافع عن كُلِّ مواطن في المملكة، ما حدث كان ذنبي وذنبَ كُلِّ جندي آخر هُنا، تلك الدماءُ المفقودةُ لن تُعوض! ضعفُ أمثالي هو ما يسببُ موتَ الأبرياء! أتفهم.. لن تعوض! لا يجدُر بك مواساتي بل يجدر بنا السير في هذه اللحظة بسحرنا الضعيف غيرِ المُجزي أو بدونه وتلقينُ أعدائنا درسًا!

ـــاحمل كُلَّ همٍ على عاتِقِكَ وحدك، وبمرورِ الوقت ستبحثُ كالتائه عن الآلام.. وعندما لا تجِدُها ستصنعُها بنفسك..

قال ثم صرخ في وجهي هو الآخر بنبرة غاضبة للغاية:

ـــستنجرِف وسطَ السوادِ أيُها الأحمق!

كانت عيناهُ الخضراوان قد بهتتا بفتورٍ وهو يصرخ بجملته تِلك، لم أرهُ غاضبًا قطُ طيلة السنواتِ التي عرفتُه فيها.. كنتُ أعلمُ أنني قد أخطأتُ وصرختُ على صديقٍ صدوقٍ لا يبغي إلّا مُساعدتي لكني أتساءلُ كذلك.. ماذا مسستُ داخِله بحديثي لأجعله غاضبًا هكذا؟، تيقنتُ من حجم المشكلةِ التي سببتُها أكثر حينما نظرتُ حولي فأبصرتُ مجموعة من الجنودِ الآخرين المحدِقينَ بفضولٍ إلى شجارٍ مزعومٍ يخرجُهم حماسُه من يأسِ أفكارِهم المُطبِق، كنتُ أرى في وجوهِهم رغبة صارخة تنادي بشجارِنا لكننا لم نكن لنتعارك أبدًا أو هذا فقط ما كنتُ أظُنُه قبل أن أتلقى تلك اللكمة المؤلمة من هارولد على معدتي والتي كادت لفرطِ

قوتها أن تطرحني أرضًا.. صرختُ بغيظٍ ورددتُ له ضربة حانقة لكنَهُ تجنبها بسهولة مُلفِتة قبل أن يصيح بوجهي مُنفعِلًا:

ـــإن كانت هذه قوتك فسيفنى الجميعُ وهم بانتظارك أيها الضعيف!

صِحتُ بدوري:

ـــسأُريك مَن الضعيف!

ثم شرعنا بتبادُلِ اللكماتِ كما الأطفالُ الصِغار، تعاركنا أمامِ الجنودِ المستمتعين المُهللين بالهُتافاتِ حتى تحولت أصواتُنا الساخِطةُ إلى ضِحكاتٍ مُستمتعة بما يجرى.. ليلتها شعرتُ أن كُلَّ ذراتِ غضبي من نفسي قد تبخرت حينها وتحول جُلُّ انتباهي نحو عراكِنا السخيف، لربما بدأ هارولد بضربي مُتعمِدًا ليُساعِدني على تفريغ ألمي وغضبي في تحطيمِ شيءٍ ما حتى لو كان ذلك الشيءُ وجهَه، وربما ضربني لمُجرَدِ حنقِه المحضِ وغضبه من تصرفاتي رغم أن ذلك التهور وتلك الهمجية كانا شيئينِ بعيدينِ عن شخصيته الهادئة كُلَّ البُعد.

مثلنا أمام قائِدي كتيبتينا، كُلٌ من الرجلين ـــقائدي وقائدُ هارولدـــ كانا يحدقانِ إلينا بوجوهٍ علتها نظرةُ غضبٍ قاتِلة، وبخانا حتى كادتِ الكلمات لو أمكنها أن تَقتُل أن تقتُلنا!

ـــأعتذر..

بادر هارولد اعتذاره بوجهٍ بدى مُبتئسًا ومُذنِبًا للغاية، فرددتُ عليه وأنا أتنهد بلا مبالاة قائلًا:

ـــلا عليك فقد كانَ الأمرُ مُمتِعًا.

ـــأيها المُستجدُ الأبله! تقاتلا هكذا في أول مهمة لكُما وستُطردانِ من الجيشِ بلمحِ البصر!

صرخَ بي قائدي بينما هزَّ قائِدُ هارولد رأسَهُ بأسفٍ على حال هذين الجندِيينِ عديمي النَفع اللذين أُبتُلِيَّ بالإشراف عليهما ثُمَّ استدار مُنصَرِفًا ريثما أكمَلَ قائِدي حديثه الذي بدى جليًا ألا أنا ولا هارولد ولا حتى القائِدُ نفسُهُ يُطيقُه

ـــقوما بتعبِئةِ براميلٍ عشرة من المياهِ لأجلِ مُعسكَرِنا عقابًا لكُما.

قال القائِد

ـــهذه مُهمةُ سَحَرةِ الماء!

صِحتُ فأخرستني نظراتُه الساخِرةُ وهو يُطلِقُ ضحكاتِه بينما يسيرُ مُبتعِدًا نحو الخيام الخاصة بالقادة المتناثرة في كُل الأرجاء ويُردِف:

ـــوبسببِ شجاركُما ومُخالفة القوانين ستُرِيحَانِهم لفترة.

بحلول الوقت الذي انصرف فيه وتوارى عن ناظِرينا نطق هارولد العابِسُ قائلًا:

ـــعِندما أترقي وأُصبِحُ فارِسًا..

قاطعتُهُ مُكمِلًا عبارته

ـــسأدوُسُ على وجهِه بِحذائي!

ثم ضَحِك كِلانا وتبادلنا المزاح ناقمينِ بسبب هذا العقابِ الفظيعِ.. ولم نعلم أن عقابنا ذاك سيغدو وعمَّا قريبٍ جدًا كارثة!

الليلُ كان سائرًا نحو انتصافه والبدرُ ظلَّ يُحدقُ بهاذين الجنديين اللذين يتبادلانِ أحاديثهما وسط غابة حالكة، أحدهما يجرُ خلفه دلو ماءٍ كبير الحجم باستياء ويشتم هذا العَمَل السخيف الذي كُلِفا به وقد كان هذا الأحدُ طبعًا هو أنا.

أخبرني هارولد وهو يستلُ سيفه اللامِع من غِمده:

–مِن حُسن حظك أنني لستُ مُتهورًا وإلّا كُنت استخدمتُ سيفي أثناء شِجارِنا.

فرددتُ ساخِرًا:

–مزاحُك مُخيف!

ثم ضحِكنا وأردفت ناطِقًا:

–هذه أولُ مَرةٍ تغضبُ فيها يا هارولد، هل كُنتُ قاسِيًا؟

فقالَ وهو يُمرِرُ إصبعهُ على نَصلِ سيفه الحاد وقد اعتلت وجهه نظرةُ حُزنٍ لم تفتنِي قبلَ أن يُخفيها:

–لم تَكُن قاسِيًا أنا فقط تذكرتُ شخصًا ما يُشبهُك، لكنه قد ورطَ نفسهُ في المشاكِل لاحِقًا.

عقبها ولشدةِ ضياعِ هارولد بفِكرِه في مكانٍ بعيد للغاية فقد جرحَ إصبَعه وسالت نقاطُ دمائه الحمراءِ القانية على الأرضِ بسرعة قبلَ أن يتداركها مُبعدًا أصابعه عنِ السيف الحاد مُرجِعًا إياه إلى غمده المعلق بخصره.. لم أعلق ولم أنبس ببنتِ شفة بعدها حتي منتصف الطريقِ تقريبًا فكُلُّ ما كان يدورُ في فكري هو محاولة فاشِلة لتفسِير ذلك الجانِبِ الغريب من هارولد والذي بدأ يتجلى أمامي في الآونة الأخيرة.

مَن هُو ذلك الشخصُ الذي يشَّبِهُنِي هارولد بِه؟ وما هي قصتُه التي تجعلُ هارولد حزينًا وشاردًا لدرجةِ أن يجرح نفسَهُ هكذا؟!.. ماذا قَصد هارولد بكوني سأغرقُ وَسط الظُلمة؟ والأهمُ مِن ذلكَ هو.. هَل مَشاعِرُه المُستاءة هذه نابِعة من ماضٍ عاشه أو مِن مُستقبَلٍ يراه هذا المُستبصِر؟..

النورُ الضَئِيلُ للقَمرِ كانَ يتسللُ عبر فروعِ الأشجار المُتشابكةِ ووُريقاتِها، فينسابُ الضوءُ سارقًا بصري لأظلَّ أتابِعُ هذه الغابة الكثيفة هنا وهناك، النسيمُ البارِدُ لليل صيفِ يوليو هَبَّ حتي ارتجفتُ تحت سُترةِ الجيشِ التي أرتدِيها رغم سمكِها كما لو أنني قاربٌ يتمايلُ قسرًا وسط الأمواج.. مَع كُل خطوة كنتُ أخطوها أسمَع صوت الأغصانِ اليابسة تتكسَرُ تحت قوة سيري، كان هذا هو الصوتُ الوحيد الذي تردد صداه مِن حولِنا في وسط غابة هادئة للغاية، هذا الهدوء هو ما أثارَ ريبتي أولًا، فأين المَنطِقُ فِي سكونِ غابة تعِجُ بمختَلَف الحيواناتِ الصاخبة غارقة في السكون؟ فبعد التفكير أنا لم أسمع ولا حتي بومة واحدة!

توقفت قدماي عن المَسير كردة فعل تلقائية على ما يدورُ بعقلي..

الخطر!.. الخطر!.. الخطر!

ذاك فقط هو ما أخذ يتردد بذِهني حتي أحسستُ بكفِ هارولد تضرِبُ كتفي للمرةِ الثانية مُهدئًا إياي، ذلك الهدوء الذي ما لَبِث أن تلاشى عُقب كلماتِه الهامِسة ووجهه المُبتَسِمِ باصطناعٍ لا يتناسَبُ وجديَة همساتِه:

–نحنُ مُراقبان..

كانت هذهِ مُلاحظته

–لكِنك ستنجو..

كان ذلِك استبصارًا.. تزامُنًا معه أضحت ابتسامة حقيقية وهو يستلُ سيفه بسرعةٍ كبيرة صادًا سهمًا كادَ لفرطِ قُربِه أن يُمزق وجهي!

فكرتُ بأن سحره الخاص لربما يُساعِده، أخبرني هارولد ذاتَ مرة شيئًا ما عن أنَّ سحره يساعدُه في توقُعِ حركاتِ الخصم، إلا أن الأمر كانَ مُرهِقًا واستخدامُ السِحر لفترة طويلة حتمًا يؤثِرُ سلبًا لدرجة قد تؤدى إلى انهيار جسدِ مُستخدِمه.. كما سأرى بعيني اليوم..

سحبتُ سيفي من غمده وصددتُ عدة سهامٍ قادمة نحونا بغتة، بحلولِ اللحظة التي استدرتُ فيها نحو هارولد لأرى حاله كانت السِهام التي هاجمتنا تباعًا لبضعة دقائقَ قد توقفت عن الظهور أخيرًا..

لربما هو توقفٌ مؤقت؟ أم يخططون للاشتباكِ المُباشِر؟

فكرتُ

–علينا العودةُ إلى المُعسكر!

صاحَ هارولد وهو يتقدمُ نحوي مُسرِعًا لكِنَّ تلك الخُطواتِ لم تصل إليَّ حينها فإذ بِنا نحنُ الجُنديانِ الوحيدانِ المبتدئانِ اللذان لا يملِكانِ سحرًا قويًا حتى نجِدُ أنفُسنا في مواجهة لعشرةِ جُنودٍ يتدثرونَ بالقرمزي ويُشهرون سيوفَهم في وجهِنا..

"سأنجو.. هكذا أخبرني هارولد.. لكِن ماذا عنه هو؟!"

فكرتُ بِذُعر ثم تقدمَ صديقي حتي التصق ظهرانا وكُلٌّ مِنا يرفعُ سيفه في وجهِ الأعداءِ اللذين أضحوا يحيطون بِنا في حلقة مُحكمة وهم على أُهبة الاستعداد للهجومِ بوحشية..

قالَ هارولد وهو يبتَسِمُ رغم أنفاسِه المُتقطِعة:

–ستنجو، لذا لا تُصب بالذُعِر.. علينا العودة إلى المُعسكرِ فعلى الأغلبِ إنَّ هؤلاءِ يردون إصابتنا والقبض علينا أحياء، للاستجواب والمعلومات.

فرددتُ وأنا أحكِمُ قبضتي على سيفي ويدي التي ترتَجِفُ قد حاولتُ جاهِدًا جعلها أكثر ثباتًا:

–لستُ قِطًا ضعيفًا لأُصابَ بالذُعر! أنت كذلك ستنجو أيها الأبله.

ضَحِك.. أخذ خطوة نحوَ الأمامِ ثم غابَ كُلٌّ مِنا في مَعركَتِه الخاصة..

في مملكة آيريا المُعادِية يُصنَفُ الذين يمتَلِكونَ سحرًا كفرسانٍ فور تخرُجِهم، الجنودُ جميعًا عاديونَ بِلا قوى ومَن يرتقي منهم في المراتبِ يرتقي بمهاراتِه المحضة دونَ أفضلية وراثية كالسحر.. السببُ في ذلِكَ كان الحاجِز؛ منذُ بُنِيَ الحاجز فقد ظلت المناطِقُ القريبة منه تستقطِبُ الأُسر ذات السِحر القوي لكي يعمل أبناؤها في الحاجز وقد كان الملوكُ يدفعون بسخاءٍ لهؤلاءِ العُمال.

بمرورِ الوقت ولما حدث الانقسام وأصبحت المملكةُ مملكتين مستقلَتين فقد ظفرت مملكتُنا بالمساحة الأكبر من الحاجِز التي امتدت لمِئاتِ الكيلومترات ولذا فإنَّ العددَ الأكبَرَ مِن مُستخدمي السحر الذين أقاموا بجوارِ الحاجز قد بقوا في مملكتِنا مما يعني حتمًا أن هنالك نقصًا في السحر لدي مملكةِ آيريا.. هم لا يفتقرون للأعدادِ البشرية بل ما يفتقِرون إليه هو عددُ السحرة منهم ولذا فإنهم يجعلونهم فرسانًا فورًا عقب تخرُجِهم لمساعدتهم وتكريمهم، بينما نحنُ في مملكتنا يُعامَلُ الساحر كأي مواطِنٍ آخر دونما تفضيل.. لكثرتِهم..

نظرتُ إلى المُهاجمين.. لا أحدَ مِنهم يحمِلُ وِسامَ فارِسٍ على سُترتِه لذا فلا أحَدَ منهُم ساحِر.. هذا يقللُ شدة المعركَةِ إلَّا أنه لن يجعَلَ لنا أية أفضلية، ما زِلنا مبتدئين نواجهُ الموت!

كانَ جنودُ آيريا يقفون في دائرة حولنا أنا وهارولد، دائرتهم أُغلِقت بإحكامٍ لا يُتيحُ لنا سبيلًا للفِرار، لكننا على كُلِ حالٍ لم نكن لنهرب كالجبناء فارِين! كثيرًا ما يختارُ المرءُ الموتَ شجاعًا بدل أن يفنى جبانًا وهذا الخيارُ مسمومٌ من كِلا الوجهين..

تقدمتُ نحو الإثنينِ اللذين أمامي بسرعة، لم يكن من الحكمَةِ أن أبدأ الخطوة الأولى في قتالٍ لا معرفَة لي بقوة خصمي فِيه لكنني لم أُحِبَّ البديهيات على أيةِ حال، أمكنني الإحساسُ بنظراتِ صديقي الغاضبَةِ مِن تهوري تلاحقني من خلفي لكنني وربما بسبب نفس الصديق كان تهوري قد بلغَ ذروته في ذلك القِتال.. عادة يموتُ المتهور وينجو الذي يُقاتِلُ أقل.. إن قتلتُهم جميعًا وحدي ألن ينجوَ هارولد؟

أوّلُ ضَربَةِ سَيفٍ وُجِهَت لي قد استهدفت رأسي مُباشرة، مراوغة سريعة قُمتُ بها وثبتتُ قدمي على الأرض بغية إخفاضِ جذعي مُسرِعًا حتي يمُر السيف بسلام لكن وفي انخفاضي ذاكَ وَجه لي جنديٌ آخر طعنة مُباشرة قبل أن تسمَح لي الثواني برفعِ سيفي لصدِها إلَّا أن غريزة البقاءِ السريعة كانت قد جعلت جسدي دونما شعورٍ مِني يَثِبُ للخلفِ ناجِيًا مِن ضربة ستقطَعُ إن أصابتني معها أكثَر مِن مَعدتي بكثير.. التقطتُ أنفاسي بصعوبة لاهِثًا وأنا أُحاول إحكامَ قبضتي على سيفي وفي تلك اللحظاتِ توًا أدركت الفاجِعة المُتمثلة في أنني أرتَجِف.. كانت قبضتي على سيفي أوهَنَ ما يكون وكفي لا ينفكُ يرتجف.. أليست المعارِكُ واجبَ الجُندي؟ رِبحُها وإنقاذُ كُلِ نفسٍ بريئة؟.. لكن.. لكنني لم أتوقع أن القتلَ بهذهِ الصُعوبَة!.. يدي في ذلِك الحِينِ لم ترتَجِف جبنًا وإنما ارتجفت لفرطِ هولِ فكرةِ أن تقتُلَ شخصًا مَا..

–إيفان!

صاح هارولد موقِظًا إياي مِن شرودي جالبًا فكري مِن عالمٍ غاص فيه بلا إرادة، هكذا يمدُ لي صديقي يَد العونِ دائمًا.. أرى سيفين يتقدمانِ نحوي قاطعين الريح وتبدأ سلسلةُ اشتباكاتٍ وضربات مُتتالية لا تتوقف.. لم يعد يطغى على سمعي صوتٌ سوى صوت تصادمِ أسلحتِنا، لم أستطِع حتي أن ألتفت لأرى حَال هارولد.. كُل ما استطعتُ فعله هو محاولة السيطرة على سيفي وأعصابي ومواصلَةُ كفاحي الخاص.. خدشٌ بسيطٌ يمر بخدي

تاركًا دمائي الحمراءَ تسيل خلفه.. سيفٌ قد أخفق محاولته في بتر عنقي يعاوِدُ الكرَّة.. ومزيدٌ مِن الطعن والضرب في كُلِ مكان.. وأخيرًا أسقطتُ ثلاثة منهم –اثنانِ أمامي وواحِدٌ عن يساري– شققتُ لأحدهم بطنه وضربتُ الآخَر في عنقه جاعِلًا ثيابي ذاتَ اللونِ الأخضر تستحيلُ قانية بسبب دمائهم.. في تِلكَ اللحظةِ لم أكن أنا مَن يُقاتِل وإنما شخصٌ آخر فقد عقلَه بصورة مؤقتة على الأقل.. وبحلُولِ الوقتِ الذي رأيتُ فيه كفي الغارقين بدماءِ الأعداء.. بدماءِ الجنود.. بدماءِ البَشر!.. كنتُ غيرَ قادِرٍ على حَملِ سيفي أكثرَ من ذلِك فهوى سيفي أرضًا وسط ساحةِ قِتالٍ بالِغة الخطورة..

"ستقتُلُ وتُقتَل".. أتذكر كلماتَ والدي الآن "ستسفك الدماء وسط بحور من المعاناة تلتف حولك كما الغريق".. تلك الكلِماتُ التي لم أهتمَّ بِها، تلك التي حسبتُ نفسي أقوى مِنها قد عادت إليَّ مُجددًا لتأسرني، هل أنا هَشٌّ إلى تِلك الدرجةِ؟ هل امتلكتُ حُلمًا أثقلَ مما يُمكِنُني أن أحمل؟..

"أتظن أنَّ الحرب لعبة أيها الولد المندفع الثائر؟ الحرب غباءٌ وشَر محض!"

أشعُرُ بأن هنالك غشاوة في عيني تحجِبُ الرؤية..كانت دافئة وسط بردِ الليل وهي تسيلُ على وجهي.. تلكَ الدموع التي لم أشعُر بِها إلَّا بعد أن خرجت وخانتني، قدماي ما عادتا تحمِلانني وشعورٌ سيئ يداهِمُ مَعدتي وكأني على وشكِ التقيؤ، والآن وأنا أرى هارولد يندفِعُ بِلا خوفٍ ولا ذرة تردد ليقطع بسيفه عنق كُلِ عدوٍ أصبحتُ أُدرِكُ مدى ضعفي، وأنا أراه يُسقِطُ سبعة جنودٍ لوحده أدركتُ مدى هشاشتي وقِلة حيلتي.. أيبكي الرجُل؟.. لم يكن لدي أُمٌ لأسألها عن ذلك قط لكنها وأينما كانت فكُلي يقينٌ بأنها حتى لو شجعتني لأبكي فهي لن تصفني إلَّا بالضعفِ في لحظاتي هذه.. صديقي يُقاتِل بمهارة؛ يتنبأُ بحركتهم القادِمَة بسحرِه ويفتكُ بهم كأنه أسدٌ إعتاد غمار الحروب.. وفية عينيه الخضراوين لا أرى أية مشاعِرٍ على الإطلاق.. لا خوفًا ولا استمتاعًا ولا حماسًا حتى يجول فيهما.

لم يبقَ مِن الأعداءِ أحد، انتهى الخطرُ بفضلِ جهود صاحِبِ الشَعرِ البُني الذي يترنح سائرًا بخطواتٍ مُرهَقَة نَحوي أنا الابله الضعيف، أذكُر أنَني في تلك اللحظات ما عُدتُ قادِرًا على رفعِ بصري عَنِ الأرضِ، اعتراني كُلُّ الخزي المتواجِدِ في هذا العالم الشاسِع.

–لم أتوقع أن يبكي إيفان إدوين.. أبدًا!

هكذا همس هارولد وهو يمد كفه نحوي لأنهض من على الترابِ والحجارة، لكن كُل ما رأيتُه كانت قطرات عرقه تتقاطر على الارض دونما قدرة مني لرفع عيني ومقابلة وجهه، كنتُ خجلًا حتى من أن أُطلِق على نفسي لَقَب جُندِيٍ بعد اليوم، فتحدثتُ مَدفوعًا بالغضبِ الخانق من نفسي:

–لم أكن ذا فائدة، أعتذر.. سأترك الجيشَ حَالما نعودُ إلى العاصمة و..

ولم أستطع إكمالَ كلماتي التي كنتُ أهذي بها إذ جلس هارولد على الارض مُسرعًا لتفقِدَ عيني مهربها من لقائه، حدقتُ في وجهه المُتعب المنهك، كانت خُصلاته البنية قد التصقت بفعل العرق على وجهه وعيناه الحادتان الواسعتان كعيني قط قد حدقتا فيّ بخضرة قاتمة عكست استياء النفسِ وظلامَ الليلِ قبل أن ينطق وهو يهز كتفاي بقوة:

–يا الهي أنتَ حقًا أبله! هذه أولُ مرة تقتل فيها أحدًا أو تكون في وسط معركة حقيقية لذا فإن ما تمر به طبيعي، لكن الضعفَ أو الانتكاس مرة أو مرتين لا يعني ضرورة تخليك عن مبادئك وأحلامك بهذه السهولة!

أراد رفعي.. إيقاظ الأملِ بداخلي.. لكنني كنتُ أشعر بشيء أكثر إيلامًا من أن استطيع تفسيره لربما ذلك هو شعورُ أن يخيب أملك.. في نفسك.

هناك في كلمات هارولد وفي الطريقة التي قاتل بها، في الجدية التي حملتها عيناه وفي ثبات روحه ثمة أمرٌ غريب لتلك الدرجة التي تُثِيرُ فَزعي فور أن تَطرُقَ بَابَ أفكاري، وعندها سألتُ هارولد وأنا أرى عينيه تضيقان وحاجباه يتغضنانِ بضيقٍ مُلفِت كردَة فعلٍ على كلماتي القائلة:

–أجبني يا هارولد.. هل هذه أولُ مرة تقاتل فيها.. وتَقتُل؟

صمتٌ مُطبق.. الكثير من الثواني التي تدير عقربها متظاهرة بأنها ساعات وأيامٌ تمُرُ على سؤالٍ أُلقِيَ في الهواء بلا إجابة، وعندما بدأ هارولد حديثه كان كل ما أستطاع أن يقوله هو

–كلا ، ليست أول مرة أقاتل وأقتُل فيها..

لم يُكمِل.. وكأن عبارته ومعرفتي اندرجتا تحتَ قائمةِ المُحرماتِ إذ فتحَ هارولد الذي يجلسُ القرفصاءَ أرضًا برفقتي عينيه بشدة كأنما بات يغرق في الظلام.. كان ذلك لثانية واحدة لا غير واستطعتُ خِلالها إدراكَ أنه رأى رؤية ما عبر سِحره.. شيءٌ ما مِن قُوى المستبصرينَ خَاصته قد باغته ولكن.. لكن إذا كانَ هارولد لم يُطِل سِحرهُ ولا زالَ يُبقيه مُفعلًا ألا يعني هذا أنَّهُ يستنزِفُ جَسَده كثيرًا وأنَّه قد ينْهارُ في أيةِ لحظة؟ وكذلِك هُو غيرُ مهملٍ لدِفاعاتِه مما يعني أنَّنا ما زِلنا في خطر ؟!

لم أُكمل التفكير ، فكأنما أضحت هذهِ الليلةُ تهوى مُقاطعتي ، إذ اصطبغَ المَشهدُ أمامي على حينِ غرة فجأة باللونِ الأحمرِ الدامي ، لونٌ تناثَر حولي في كُلِ مكانٍ ليحجِبَ رؤيتي ويعيق فهمي.. وعندما عاد إدراكي المسلوب من الصدمة إليَّ فهمتُ أن أحد الذين ظننتُ نفسي قد أجهزتُ عليهم قد عاود النِهوضَ ببقيةِ نبضِه ليَنتَقِم مِن جلادِه –أنا– ويدُقَّ عنقه على حين غفلة ، وهارولد المستبصر المتعب الذي رأى الهجوم بقدرته قد حملَ سيفه متجهزًا ، إلا أنه في النِهايَةِ قد أُصيبَ بسبب إنهاك جسده وهو يصد هجوم الرجل المباغت ذاك.. سقطا أمامي وكلٌ منهُما يسبحُ في بحيرة دمائه الخاصة.. هارولد الذي كان مُتعبًا في الأساسِ ومُستنزَفًا مِن سحره الخاص قد تعرضَ لجُرحٍ يمتدُ على طُولِ معدتِه ليبدو كما لو انه أخدودٌ قرمزي قانٍ.. جرحٌ إن لم أوقف نزيفه فورًا ويُعالج فلسوف يسلبني صديقي العزيز هذا.. أرى الآنَ كم أنني لا أريد أن أنجو وحيدًا! لا أريد جنة فارغة!

الفصل الرابع

مَعركة ضِد القُرمزي

بالرغمِ مِن ظلامِ الليلِ الحالك الذي حَاوطنا.. بالرغم مِن نور البدرِ المُكتمِل الخافت للغاية فإنني ما زال بإمكانِي رؤية الدماءِ واضحة وهي تخضب كفي وتسيلُ على الأرض بعجل ومهما حاولت ومهما أخذتُ مِن أقمشة مزقتُها بغية ضغطِها فوق جُرح هارولد النازِف فإنها ما كانت تُجدي لإيقافِ نزيفه، الجُرحُ لم يكن عميقًا جدًا لكِنَّ فقدانَ كثيرٍ مِن الدماءِ في النِهاية لهو أمرٌ قاتِل.

–الرجُلُ الشُجاع لا يُضيعُ كثيرًا مِن وقته الثمين وهو يحاوِلُ إنقاذ شخصٍ ميت، فلتذهب إلى المُعسكر سريعًا ولتحذِرهم مِن أن بعضَ أفرادِ جيش العدو قريبون.

همس هارولد بأنفاسٍ مُتقطعة خافِتة جعلتني أُشفق مِن هولِ ألمه الذي يُقاسيه فنطقتُ مُعانِدًا:

–إذا كان هذا قولك فلا أرغب بأن أكونَ شُجاعًا وأنت لن تموت، وليحترق جيشُنا في قعرِ الجحيم!

بصبرٍ نافذٍ راقبتُ ملامح استيائه وأنا أسنُده ليصعَدَ على ظهري، أردتُ أن نبتعِد عن ذاك المكانِ بأية طريقة رغبةٍ مني في العثورِ على مَن يمكِنُه علاجُ جُرح هارولد وخياطتُه على الأقل.. إذا ما توجهنا بخطٍ مستقيمٍ مُتتبِعينِ المسارَ الأصلي فسنصِلُ إلى النهر حيثُ كُنا سنملأُ براميل الماء، أما إذا عُدنا أدراجنا فسنعثُرُ على رجالِنا الذين ينامونَ ببطونٍ مُنتفِخة بينما يلتفُ حولَهم الأعداءُ لينقضوا عليهِم على حينِ غفلة، وأنا –إيفان إدوين– لن أسمحَ لهُم أن يظلوا في تلك الغفلة لأكثَر مِن ذلك، والآن يبدأُ سباقي القاسي مَع الزمن وأتساءلُ إن كنتُ حامِلًا هارولد على ظهري سأتمكَنُ مِن تحذيرِهم في الوقتِ المُناسب.

–عندما أتينا إلى عُمق الغابة بغية ملئ الماء.. كانَ يجدُرُ بِنا أن نُلاحِظ أننا لم نَر أيًا مِن الجواسِيس اللذينَ نشرَهُم الفارسُ الملكي للمُراقبة، مما يعني أنهُم قد اغتيلوا جميعًا.. وأن الأعداءَ يخطِطون ليضربوا بغتة.

ثم تحدث هارولد معي مِن بينِ سُعالٍ مُتقطِعٍ بدأ يسعله، كان يتشبثُ بي بيد بينما يُحاوِلُ إيقاف نزيفِه باليدِ الأخرى وأنا مدفوعًا بكلِ الضغوطاتِ الكامنة في ظروفي هذه أسيرُ شِبه مُهرولٍ حامِلًا إياهُ حتى كِدنا أن نسقُط مرة أو مرتين.

–لا تتحدث ورَكِز على الضغطِ على جُرحِك، لا بُد أنهم ينتظرون اللحظة المُناسبة ليضربوا وأن لديهم جواسِيسًا يعلمونهم عندما يغِطُ الجَميعُ في نومٍ عميق، إذا كان مُعسكَرُنا قد أُخترِقَ بهذه القوة فهذا يعني أن الطعامَ والشراب قد يحتوى منومًا أو سُمًا في أسوأ الأحوالِ، ولكون الوقتِ قد اقترب مِن مُنتصفِ الليل فهذا يدلُ أن الوقت الذي سينامُ فيه الجميع قد اقترب كذلِك، خطة مراوغة مِنهم كهذه تعني أن جيشهم ذو عددٍ قليل نسبيًا.

تحدثتُ بينما أُحاوِل أن أعطى اهتمامًا أكبرَ لتضارِيسِ الأرضِ تحتَ قدمي حتى لا نهوي أنا وصديقي تحتِ حجرٍ مُدببٍ ما ونكسِر عِظامنا الغضة، فردَ الأخيرُ بنوعٍ مِن السعادة الغامِرة:

–لن يُسمِموا أحدًا لأن السُمَّ سيُكتشَفُ مبكرًا في المُعسكر ويتسببُ برفع حالة التأهب وبالتالي يفشلُ أي هجومٍ مُباغت.

–إذًا فالمنومُ أقرب.

–نعم، أُحِبُ عندما تُفكِرُ بعقلك.

قالها هارولد وهو يضحكُ فرددتُ بعصبية جلية:

–وأنا أُحِبُ عندما تصمُت وتُركِزُ على إيقافِ نزيفك!

بدا لي أن هارولد ما كانَ مُهتمًا بجرحه حقًا، كما لو أن حياة شخصٍ آخر هي المُعرضة للخطر بينما يقِفُ هو مُتفرجًا مِن بعيد.. حينَ أكادُ أتعثر فإنه يئِنُ بألم وحينَ أُنصِتُ بإمعانٍ فإنني أتمكنُ مِن سماعِ كِفاحِه ليلتقِطَ أنفاسه، لم أرِد أن أفشَل في الحفاظِ على حياة شخصٍ عزيزٍ عليَّ ولن أسمَحَ لنفسي بذلك.. قاطعَ حَبل أفكاري وهو يُصرّحُ لي بصوتٍ حزين كموجة بحر:

–أنزِلني يا إيفان وامضي لتنقِذ الجميع، إن ذلِك أهم.

فجادلتُه:

–لا يُوجَد ما هو أهمُ مِن إنقاذِك.

–سأموتُ على أية حال لذا لا يُهِمُ إن تعجَلَ الأمرُ قليلًا!

فتوقفت.. توقفت قدماي مِن تلقاءِ نفسيهما وما وجدتُ نفسي قادِرًا على النُطق عُقب الذي سَمِعتُه.. ما الذي يهذي به الآن؟

–هل تقولُ التفاهاتِ الآن بسببِ الحُمى؟!

صرختُ فأجابني بصوتٍ يخفُتُ تدريجيًا:

–لا تُرهاتٍ في الأمر..

وبينما عيناي تُراقِبُ الأرض بثبات وقلبي ليس حاضِرَ الموقف مُطلقًا.. حدثت مُعجزة تمثلت في أنني لو خطوة خطوة إضافِية واحدة بَعد لكان السهمُ المُباغِتُ الذي انغرس أمامي بسنتيمتراتٍ قليلة الآن يغوص داخل لحمي وعظمي.. عندما وقعَ ذلك السهمُ أمامي مُباشرة وأمطرت مِن بعده الأسهُم أدركتُ أن مزيدًا مِن الأعداءِ قد وصلوا وأنهم لما رأوا مَا فعلنا بِزُملائهم فقد غمرتهُم الرغبة في مَنعِنا مِن تحذيرِ جيشِنا بأية طريقة وسيُطارِدوننا ويغرِسون أسهُمَهُم وسطَ قُلوبِنا لو تطلَبَ الأمر، عليَّ الهروب قبلَ أن نُوعَدَ أنا وهارولد برحلة سريعة إلى العالمِ الآخَر.

كنتُ أجري بفوضوية على غيرِ هدي، بالكادِ أتفادى الاصطدامَ بالأشجار الكثيفة، وفي الثواني القليلة التي أنظرُ فيها خلفي لأتفقد الوضع لا أتمَكنُ مِن رؤية مُطارِديَّ إطلاقًا مما يعني أنهم لا يرونني كذلك وهو ما يدفعُني للتساؤلِ عن كيفية إطلاقِهم السِهامَ عليَّ بهذه الدقة؟ بالنظر إلى المُعطياتِ حولي فإن لدي احتمالًا واحدًا فقط لأُفكِر به وقد دعمته أصواتِ صهيلِ الأحصنة البعيدة بشدة.. مَن يُطارِدوننا هُم فُرسان يمتطون خيولهم، فرسانٌ يرسلون أسهمهم لتصيبنا عن بُعدٍ عبر سِحر التتبُع النادِر للغاية.. بوجود هؤلاءِ المُتتبعين فإن هربنا ــأنا وصديقي المصابــ أضحى ضربًا مِن الخيال البديع! وقد دعوتُ مِن كُل قلبي أن أكُونَ مُخطِئًا لكنني لم أكن كذلك أبدًا!

ــهُم مُتتبعون، أستطيعُ استشعار قدرٍ ضئيلٍ مِن سِحرِهم ينبعِثُ من هذه السهام الطائشة.

قال هارولد بينما وقفتُ لنتوارى خلف شجرة كبيرة طالبًا التقاط أنفاسي، بالنسبة إليَّ أنا الذي لا أملك سحرًا يخصني فإن استشعار طاقاتِ سحر الآخرين الضئيلة لهو ضربٌ مِن خيال، يمكنني فقط الإحساسُ بالسحر إذا ما كان قويًا جدًا وحينها يكونُ إحساسي غيرَ مُحببٍ على الإطلاق إذ يتصرفُ جسدي الضعيفُ كجسد الغريق عندئذ.

_لدي خُطة.

همستُ لهارولد وأنا أعاوِدُ مرة أخرى ركضي بينما عيناي تُركِزانِ فقط على شيء واحدٍ يلوحُ في الأُفقِ أمامي، مدخلٌ لكهفٍ قديم مغطى بالطحالب سيمنحُني على الأكثر عشر دقائق قبلَ أن يصل إلينا السحرة إذا ما اختبأنا فيه، تلك العشرُ دقائق ستكونُ كافية جدًا لتنفيذ ما ببالي.

لا صوت كانَ يترددُ في عمقِ الكهفِ الحجري الكبيرِ سوى صوتِ قطرات الماء التي تتقطرُ من على السقف بوتيرة شبه مُنتظمة، لفحت وجهِي رائحةُ العفن والأشجار القديمة وسرت في جسدي رجفة مُباغِتة بسببِ البردِ الفظيعِ هُنا، مساحة الكهفِ ليست بقليلة ويبدو أنه يمتدُ بسرورٍ إلى ما لا نهاية ويغرقُ في الظلامِ وأنا لم أكن لأود الغوص في عُمقِه كثيرًا مما جعلني أختبئ خلفَ نتوءٍ صخري بارز لأضع أخضَر العينينِ أرضًا مُواريًا إياه عمن أحسبه سيدخُل الكهف، كانَ هذا الأخيرُ قد بدأ يفقدُ وعيه بالفعل وما أحسبُ قدرته على فتح عينيه الناعِستينِ إلَّا قُدرة مؤقتة قصيرة.

"لو لم يحمِني لما أُصيب"

فكرتُ في نفسي ريثما أجثو على رُكبتي بقربه، كان يرتجِفُ بضعفٍ بينما يغلي جسدُه مِن الحُمى أما هُو فلم يكُفَّ عن إخباري أنه بات كقطعةِ ثلجٍ وأن الجو بردٌ لا يُطاق.

_هذا بسبب الحُمى فالجو ليس بهذه البرودة.

قُلت بينما أُعاين جُرحه كذلك، صحيحٌ ألَّا خبرة لي في الطِب إطلاقًا لكن وجودَ جُرحٍ قد توقف نزيفُه سيفرحُ أيًا كان عالِمًا أنها بشارة خير.

نهضتُ وأنا أخلع معطفي الأخضر القاتِم وأغطي به ذاك الجسدَ الذي يُصارعُ أنيابَ المَوتِ مُفترِشًا الصخرَ والتُراب ثم استدرتُ لأُغادِر إلّا أن صديقي كان لا يزالُ يُستعينُ بآخِرِ خيوط وعيه بغية أن يحدثني قائلًا:

_لا تنوي أن تواجِههم وحدك صحيح؟ هذا جنونٌ والهرب أفضَل!

شددتُ قبضتي على سيفي عازمًا على ألا أرتجِف بَعد الآن وأجبت:

_سأعود حتى آخُذك للطبيب، إن لم نُبعِدهُم عن طريقِنا فلن يتركُونا لنرحل.

_لن تُبعِدهُم وحدَك!

صاح فيَّ ثم تأوه بشدة نتيجة ضغطه الزائد على جسدٍ ضعيف للغاية، استدرتُ وحدقتُ به وقد عادت يداي ترتَجِفانِ مِن جديد، في موقفٍ كهذا وأنا أرى وعيهُ يُسلبُ مِنه ببطءٍ وعيناهُ تُغلقانِ بأسى فقد أسرني الذَنبُ مُتسائلًا ماذا يجِبُ أن أفعَل؟ لو كنتُ أمتلِكُ سِحرًا ما ولو مِن أي نوعٍ لكُنَّا الآن نمتلِكُ فُرصًا لننجو، لو كُنت أقوى بقليل فقط لاستطعتُ أن أكونَ مُفيدًا في القِتالِ السابِق.. ما كانَ على هارولد أن يلعبَ دَور حامِيَّ ويدافِع عني باستماته، فلربما أنا مَلعونٌ كَما قَال والدي.. شخصٌ حَسِبَ الحَرب لُعبة ما..

_أنا ملعون.. لذا سأُذيقُهُم جُزءًا مِن لعنتي وسأعود.

قُلت كلماتي قبيل أن يفقِد هارولد وعيه، كلماتٌ خرجت من قلبٍ مُنهك للغاية.. على الأرضية الصخرية الرمادية تناثرت بُقعٌ مِن دِماءِ صديقي في كُلِ مكانٍ كُنَّا قد خطونا فيه.. بعثرتُ تلك الآثار ودفنتُها حتى مدخَلِ الكهف تقريبًا، وفي الخارجِ فإني قد أخرجتُ خنجري الصغير الذي لا يفارِقُني أبدًا ومررتُه على طولِ ذراعي الأيسرِ مُحدِثًا جُرحًا استطاعت الدماءُ السائلةُ مِنه أرضًا تزييف آثار دماء أخضرِ العينينِ ومواصلة طريقها لتضليلِ أي شخصٍ قد يُفكِرُ في اللحاق بِنا.. والآن ستقودُ آثارُ الدماءِ تلك إليَّ وليسَ إلى هارولد كاستِل.

الطريقة الوحيدة لهزيمة سِحر التتبع هو بجعلِه يُصيبُك، السِهامُ التي أُرسلت وراءنا قد هاجمت مقتفيه آثار دِماءِ هارولد المُتخلفة على أرض القتال، إذا ما جعلتُ تِلك السهام تُصيبني أنا الذي غُطي قميصي بدم صديقي فلن يعمَل السِحرُ ولن يكون هارولد في خطر عندها.. فكرتُ ثمَّ وقفتُ مكاني جامدًا كصخرة على بُعدٍ مُناسبٍ من الكهف يجعلُه يخرُجُ مِن دائرةِ الخطر، أُنصِتُ السَمع لكُل هبة ريح وكُلِّ وريقة تتحرك، الاتجاه الذي يأتي منه سهمٌ يُسمع مِنه صفيرٌ خفيفٌ ناتج عن احتكاك السهم بالهَواء.. سمِعتُ ذلك الصفير بصعوبة في جزءٍ مِن الثانية وفي الجزءِ الذي يَليهِ كانَ السَهمُ قد اخترق ساعدي الأيسر وغرِقت يدي اليُسرى بالدماءِ كُليًا بعد نَزعِي إياه.. عُقب أن أصاب السهمُ الهدف فلن تُطارِد المزيدُ من الأسهُم بل إنَّ المُتتبِعينَ أنفُسهم قد باتوا يعلمونَ موقعي وسيصلونَ إليَّ في أية لحظة، سارعتُ بربطِ قماش حولَ جُرحي ليوقفَ تدفُق دِمائه، كانَ الأمرُ مؤلمًا وكثرتُ فقدانِ الدم لهي شيءٌ يجعلُ رأسَك لا يكفُ عن الدوار.. أخبرني هارولد أنني لَن أُبعِدهم وحدي وقد كَان لديه كُل الحق في كلامِه مما جعلني لستُ أنوي بأي حالٍ من الأحوالِ مواجهة عدد مجهولٍ من الفُرسانِ السحرة لوحدي إذا ما سمحتُ للمنطِق بقيادتي، ليس وهارولد يُصارِعُ الموت والوقت! إذ أذكُر أنني لمحتُ قرية صغيرة قُرب سلسلة الكهوف الصخرية التي تمتدُ في هذه الغابة على خريطة ما قبل مجيئنا إلى هُنا وقد أذهَبُ لأجلِب لصديقي المُساعَدة من القرية التي آمُل أنها لم تتعرض للهجوم بَعدُ و.. وما هذا؟!

أصواتُ الأحصِنة قد باتت عالية لتلكَ الدرجَة التي يصعُب معها سماعُ أي صوتٍ آخر، سبعةُ لا بل ثمانيةُ ظلالٍ سوداءٍ تُحاوِطُني على حينِ غرة

"لم ألحظ وصولهم حتى"

قُلت في نفسي وأنا أشُد قبضتي على سيفي، الآن تغيرت خُططي وأضحى لِزامًا على العادي أن يواجه السَحرة.. جنديٌ مُصاب وفُرسانٌ سحرة.. حين لا يصبحُ هناك منفذٌ فسيُقاتِلُ الإنسانُ كوحشٍ مسعور، لكني إذا لم أنتصر فلن تُسلب حياتي وحيدًا وإنما ستُؤخذ حياةُ صديقي أيضًا.

ـــأظهِروا أنفُسكم!

صِحتُ بلا ذرة تردد ولم أتساءل حتى إن كُنتُ أستَطيعُ النجاة من وضعٍ كهذا أم لا.. الذين بينَ الظلام قد تقدموا نحو دائرة النورِ التي يُلقيها القمر بسُرعة كما لو أنهم لا يهابون شيئًا إطلاقًا، كانت أحصنتُهم سوداءَ جامِحة وقد استل كُل فارسٍ مُتدثر بعباءته الحمراءِ سيفهُ اللامِع رافِعًا إياه باتجاه شخصي الوحيد.. بعدها تحدث الذي أمامي مُباشرة بهيبة لا تدُل إلّا على أنَّهُ قائِدُهُم قائلًا:

ـــاستسلِم يا جُندي "كوتسيريا"، أنت وحدك هُنا ولا أستشعِرُ مِنك أيَّ طاقة سِحرٍ على الإطلاق، أعترِفُ أنك بارِعٌ في الهربِ ولكِن لم يَعُد هناك مهربٌ لك الآن.

ـــأرفُض.

صحتُ ردًا بصوتٍ خرج ثابِتًا أكثر مما توقعت.. الفارِسُ أزاحَ العباءة عَن وجهه وحَدق إليَّ بعيونٍ رمادية حادة للغاية، كأن فِيهما برودة الموتِ نفسِه، وقد ارتسمت تلك الابتسامة الجادةُ على وجهه الطويل المُحاطِ بشعره الفاحِم المُجعد.. بالتأكيدِ فإن أربعينيًا يمتلِكُ هذه البنية الجسدية القوية مِثله لهو خصمٌ صعبٌ للغاية، لم أتحرك لأهجُمَ عليه ولم يَكُن في إمكاني ذلك.

ـــألن تَهجُمَ إذًا؟

قالها بلا تعبيرٍ تقريبًا ريثما شَدَّ لِجامَ حِصانه مُتقدِمًا نحوي باندفاعٍ صاحَبَهُ صِياحُ فارِسٍ مِن أولئك "الآيريين" بجزع:

ـــلا تقتُله أيُها القائِد!

فرد عليه قائده وهو يقتربُ مُتعجِلًا والريحُ تعصُف بمعطفِه القرمزي كبركة دم:

ـــأعرِفُ ما أفعل.

ثم انقضت الثواني كأنها ساعاتٌ دون أن أسمَحَ لقدميَّ بأن تتزحزحا قيد أنمِلة.. تمامًا في لحظة هجومِ سيفِه مُستهدفًا عُنقي فقد أخفضتُ جسدي جالسًا القرفُصاء لأُحدِث شِقًا أُفقيًا على

طولِ جذعِ الحِصانِ الذي صهل بأعلى صوته رافِعًا قوائمَهُ الأمامية عَن الأرض، استقمتُ واقِفًا لأصُد ضربة وُجِهت نحو ظهري فجأة مِن قِبل ذلك القائد الذي لَم تسنح لي فرصة للتساؤلِ عن متى وثب أرضًا حتى! تلاقت سيوفُنا في تصادُماتٍ سريعة مُتتالية جعلت الرجُل المُتدثر بالقُرمزي يضحك باستمتاع كما لو أنَّ القِتالاتِ تُنعِشُه، كان أطول مني وقد صَعُبَ عليَّ التركيزُ على القتالِ مَع ذلك الجُرح الذي خلفهُ السهمُ سابِقًا والذي ما انفك ينزِف بغزارة، الآن أضحت وتيرةُ الضرباتِ المُتتالية خاصة العدو أسرع كما لو أنها تأسرني من كُلِّ جانب، عدمُ تدخل حُلفائه الآخرين يعني أن الجميع يراني خاسرًا لا محالة، ليتني لم أكن أرى نفسي كذلِك أيضًا..

بيدي اليسرى التي أُحركُها بصعوبة فأدفعُ ثمنًا لذلك ألمًا فظيعًا قد غصتُ في جيب بنطالي الخلفي لأُحضِر خنجري المُسنن داسًا إياه كخيطٍ ضئيل من خيوطِ أملي، تراجعتُ إلى الخَلفِ لألتقط أنفاسي فلم يسمح ليَّ رماديُ العينين بذلك.. هجم بقوة مُستهدِفًا عُنقي فتفاديتُ دون أن أصد بسيفي، ثم رفعت سيفي لأستهدِفَ ساقيه اللذين سرعانَ ما أرادَ القفز بهما للخلفِ لتجنُبي لكنني كنتُ قد رفعتُ يدي اليسرى لأغرس خنجري في كتِفه الغيرِ محمي على الإطلاق مُتجاهلًا الدم المُتناثر على كُل العُشبِ الأخضرِ من حولِنا والذي ما عُدت أعرف إذا كانَ يعودُ إليَّ أو إلى عدوي الذي أضحى مُصابًا هو الآخر.. لكِنَّ نصري المؤقت هذا قد كان هشًا وقصيرًا للغاية إذ رفعتُ سيفي لأضرِب عُنق عدوي مُستغِلًا ذهوله ومُفاجأته إثر إصابَتِه وقد كان سيفي قريبًا من مُبتغاه أشد القرب ولكن.. عندها فقط شعرتُ بطاقة سحرية هائلة لأولِ مرة بهذا الشكلِ في حياتي، أنا الذي لا يمكِنُني استشعار السِحر إلا الضئيل فقد أضحى فجأة يضغَطُ على جَسدي وينتشر في كُل مكانٍ بطاقة هائلة، التنفُس يُصبِحُ أصعب والرؤية تغدو ضبابية ريثما يشرَعُ كُلُّ شيءٍ حولي بالدورانِ بلا هوادة، تضطرِبُ معدتي ويغزوا البَردُ أطرافي بألم ثم يبدأُ جسدي يتهاوى.. أتمايلُ غيرَ قادِرٍ على الثباتِ ويسقُط سيفي غَير قادرٍ على تَحمُلِ جاذبية الأرض، لأسقُط أنا مِن بعده وآخِرُ إرادة فيَّ لا زالت تستميت وتصرُخ بأن أُقاوم وأنهض وبأنَّ هذا ليس الزمانَ ولا المكان المُناسبين لأفقِد الوعي لمجردِ استشعاري لِسحرٍ ما، حولي أعداءٌ

سيقتلونني، ورائي صديقٌ ينتظِرُ العلاج، وبينَ يدي وعيٌ غدا ضعيفًا هشًا وسائِرًا نحو خذلانِي..

"لماذا أنا ضعيفٌ إلى هذا الحَد؟"

أسمَعُ ضحِكاتِ القائِد تتردد أعلى مِن حشرات الليل ثم ما عُدتُ أسمعُ شيئًا بعدئذٍ.. فقط أغرقُ في السواد كريهٍ يسجنُني.

الفصل الخامس

فارِسُنا المَلِكِيُّ مَجنون!

فتحتُ عيني بوهن فالظلامُ القاتِمُ الذي ظلَّ يُحيطُ بي لمدة أجهل قدرها قد جعلني أظن ألَّا عودة لوعيي إلى الواقِع، لكِنَّ الواقِع الذي رأيتُه كانَ سيئًا.. لتلك الدرجةِ التي تفوقُ قدرتي على التَحمُّل؛ إذ كانَ أول ما شعرتُ به عند فتحِ عيني هو ألمٌ رهيبٌ يستولي على كل جسدي، إحساسٌ لا يَرحَمُ بالثِقَل وبأنَّ أخذَ النَفَسِ مُهمة بالغةُ الإجهادِ، ساعدي الأيسَرُ تحديدًا كان يمتَدُ ألمه على طُولِ الذراع صعودًا وهبوطًا في موجاتٍ حارقة جعلتني أتلوى، يتمدد ظهري على أرضية باردة تجعلني أرتجف، عيناي اللتان لا تريانِ إلَّا ظِلالًا الآن قد خذلتاني وجعلتاني عالِقًا في سجنٍ من الآلام دونما قدرة مني على تحريكِ أطرافي أو على فهم ما يدورُ حولي، كما لو أن جسدي ما عادَ مِلكي، والآنَ فقد بدأ الألَمُ الحارِقُ ينحَسِرُ ويشتد، ما ينفكُ ينحَسِرُ ويشتد حتى استقر كله في نفسِ المكانِ الذي انغرَسَ بِه السَهمُ سابِقًا، شعور الكي بالنارِ قد غمرني وما عدتُ أُطيقُه.. باحِثًا في أعماقِ نفسي عن طاقة للصياحِ فقد اخترق سمعي صوتٌ يصرخُ عاليًا فجأة، ككأسٍ فاض بِها فرطُ امتلائها بالماء فانكسرت.. وعندها فقط أدركتُ أن الصوتَ الذي يصرخُ كان صوتي.

رؤيتي أصبحت واضحة أخيرًا، ضوءٌ خافِتٌ يُنذِرُ بقربِ الفجر، حجارةُ كهفٍ ضيقٍ غُطيت بالطحالِب وفاحت بالرطوبة، وقضبانٌ حديدية تَسد مدخَلَ الكهفِ بثبات، وأخيرًا وجهُ شابٍ جالِسٌ بقربي.. يُحدِقُ إليَّ..

ـــهل تستطيعُ التَحدُث؟

قالها بصوتٍ جافٍ خشن فبحثتُ في حلقي عن قدرة لأجيبه لكنني كُنت أوهن مما اعتقدت وخرجت كَلِماتي همسًا بالكادِ كانَ مسموعًا:

ـــنعم.. أين أنا؟

فرد وهو يلقي نظرة خاطِفة على القضبانِ المنيعة:

ـــسِجنٌ في معسكرِ العدو، نحنُ بأيدي جنودِ آيريا الآن وقد جلبك بعضُ الجنودِ قبل حوالي ساعتين لربما أرادوا أن يُعذِبوك ويستجوبوك، كنت تنزِفُ بشدة وقد ظللت فاقدًا لوعيك بطريقة مُخزية أيها الجندي لذا عالجتُك.

ـــآه..

تعجبت ثم اعتدلتُ جالِسًا، عصف رأسي بِدوارٍ لم يستمر كثيرًا تمكنت بعده من معاينة جرحي بتلهف، كم قميصي الأبيض الطويل المليء بقطرات دمائي كان ممزقًا، مكان جرحي كان محروقًا بصورة مُفزعة حقًا مما جعلني أجفل بفزع، أما ذلك الشاب فلما رأى جزعي فسر لي ما أراه قائلًا:

ـــيجِبُ ألا تنزع السهم بَعد الإصابة به؛ ذلك سيسمح للدم أن يتدفَق حتى يقتُلك فقدانُه، وأنت نزعته لذا استخدمتُ سحر النارِ الخاص بي لأقوم بكي جرحك وإيقاف النزيف.. مع أن هذا سيترك ندبة حرقٍ لن تزول مُطلقًا..

ـــشكرًا لك..

رددتُ ثم أردفت وأنا أحاول الوقوفَ مُترنحًا بوهن:

ـــلديَّ صديقٌ عليَّ إنقاذُه، وجيشٌ عليَّ تحذيرُه ولن يمكنني البقاءُ حبيسًا هُنا طويلًا..

فقال الشاب وهو يستقيم في وقفته قبالتي:

ـــلا تقلق بشأنِ الجيش فهم بخير وقد خسِرت آيريا صِدامها معنا عند منتصفِ الليل، كُنَّا نعلم بأنهم سيهاجِموننا بغتة.

ـــحقًا؟!

قُلتها بابتهاج كبير مُمتنًا على هذه النِعمة، نحنُ لم نخسر المعركة بَعدُ إذًا.. لكن لماذا قال "كُنا" وكأنه جندي في جيشنا؟

ألقيتُ نظرة على ذلك الشاب الذي عَكس عليه ضوءُ الفجر الوليد نورًا كافِيًا مكنني من رُؤيتِه، مظهره كان هادئِ، كانَ يمتلِكُ شعرًا أصهبًا قصيرًا ناعمًا ومبعثرًا، لونُه متوهجٌ مماثِلٌ للونِ نيرانِ المشاعِل المُتأجِجة، أما عيناهُ اللتان ضيقها بسكون فقد كانتا تتمتعانِّ بزرقة تبدو لامعة حتى في سوادِ أطرافِ الليل، زرقتها جعلتني أحسبُ أنه مِن سُكانِ "فاري الملعُونة".. فلا زرقة بهذه الدرجة تكمُن في عيني أحدٍ إلَّا في أبناءِ فاري، كان طويل القامة وعباءته السوداءُ التي التحف بها قد غطته تمامًا ولو أنه قد غطى رأسه بالقلنسوة التي تزين العباءة لما رُئي مِنه شيء، كانَ لديه حضورٌ مَهيب وصوتٌ يُخشى منذ أولِ وهله مما جعلني أتساءل..

مَن هذا الشَخص؟

وما الذي قد يجعَلُ شخصًا بهذا الحضورِ يُسجن هُنا؟

وأخيرًا.. تساءلتُ أين تُراني قد رأيتُه قبلًا؟!

_أشكُرك على مُساعدتي ولكنني أود أن أعرفَ مَن أنت؟

قُلتها بحذرٍ ريثما أُبقي عيني عليه، في الحرب حتى وإن كان قد تم إنقاذك من قبل خَيَّرٍ ما فلا يزالُ عليك البقاءُ حذرًا وإلّا طارَ عُنقُك!

ابتسم الأصهبُ ببطء وأطلق بصره ليجولُ حولنا كأنما يخشى تنصُت الجدران وفي أثناء ذلك أضفتُ سؤالين صريحينِ بنبرة مترددة جراء ضعفي وجراحي:

_هل أنقذتني عبثًا فقط لأنني كُنتُ على وشك الموت أم أن لَك أسبابًا خفية؟ و.. هل أنت صديقٌ أم عدو؟

عندها كانت الابتسامة الهادِئةُ قد اختفت من على وجهِه وحلت محلها تعبيراتٌ ساخرة خمنتُ أنها لربما تستهزئُ من ضعفي أو من أسئلتي إلّا أنني اكتشفتُ أنها كانت تستهزئُ فقط من ضعفِ ذاكرتي!

_ثالِثًا.. إن كُنتُ عَدوًا لك فلكُنت الآن ميتًا.

صمت ثم خطى نحو الوراءِ خطوتين مُبتعدًا عني بمترٍ ونصفِ المتر، ثم أردَف:

_ثانيًا أنقذتُك لأنني لا أُريدُ أن تخسر المملكةُ جُنديًا واعِدًا مِثلك يا إدوين.. ولأنَّ لدى مُهمة هنا لن أستطيع تنفيذها إلّا بمساعدة أحدِهم، ويَصدفُ أنك ظهرت لتكون ذلك الأحَد!.. وأولًا..

جعل يَدهُ اليمنى أمامه وانحنى باعتدالٍ وهو يعرِفُ بنفسه هامِسًا:

_أنا "لوثيار ألفرين" الفارِسُ الملكي القائِد لجيش كوتسيريا في هذه المعركة والذي صادَف أنّهُ كان الفارِس الذي عينَك يوم تَخرُجِك يا إيفان إدوين.

قائِدُ جيشنا نحنُ هُنا؟ في زنزانة لدى العدو!

تمامًا في تلك اللحظات قد غُمرتُ بحماقتي حتى النُخاع، كيف لم أتعرف على القائد ألفرين؟ كيف قد أنسى شعرَه النارِيَّ وعينيه الجليديَتينِ القادمتين من سماءِ الشتاء وهو ذاتُه الذي عينني يومَ تخرُجي، لا يجِبُ أن أنساهُ أنا ويذكرني هُو! بل العكس!

_قد لا تعرِفُ هذا لكنك ذائِعُ الصيتِ بسبب درجاتِك المرتفعة بالرغم من أنك لا تمتلِكُ أي سِحرٍ على الإطلاق، الجميعُ يقسِمون أنك واعِد!

قالها بصوتٍ قد لان بَعض الشيء ثم توجَه نحو القضبانِ بمهل ريثما سَخِرتُ سِرًا

"لا يعلمون أن ذاك الواعِد ما لَبث يرجُف كالورقةِ حين المعركة!"

_أستُساعِدُني؟

قالها هو

_يجب أن أعرف التفاصيل أولًا.

قُلتها أنا وانحَنيتُ مُظهرًا الاحترام ثم التفت إليّ هو وأخبرني بسبب وصولِه إلى هذا المكان..

ــإن أسهل طريقة لكي تتسلل إلى مُعسكر العدو هي بالتظاهُر بأنك مجنونٌ مختل، عندما يرونك فلن تكون مهمًا لتلك الدرجة التي ستجعلُهم يرغبون بقتلِك لذا فغالبًا ستُلقى في زنزانة بدون حتى حراسة لائقة، تلك كانت خطتي المتواضعة وفي الواقع لدي امتنانٌ عميقٌ لمساعِدي الجيد "ياسِن آزورش" فنائبي هذا قد جمع مِن عند جواسيسِنا الذين يخترقون صفوف جيش العدو الهمجي معلوماتٍ مهمة للغاية، تلك التي بسببها أظهرتُ نفسي كمجنونٍ لبعضِ الوقتِ وجئتُ إلى هُنا، على سبيل اختصار الشرح المطول يا إدوين.. هل تعرفُ ما معنى استخدامِ السِحر الظلامي؟ خاصة في معركة؟

ــرباه!

خرجت مني نتيجة صدمتي التي عجزتُ عن تدارُكِها، السِحرُ الظلامي هو الضد الأزليُ للسحر النوراني الذي تندرِجُ تحته كُل أنواعِ السحرِ المعروفة والمسموح باستخدامِها، وجهانِ لعملة واحدة يحمِلُ أحدُهما الخلاص والقوة بينما يحمِلُ الآخرُ الخراب والقوة! السِحرُ الظلامِي مُحرّمٌ أشد التحريم ومُجردُ التفكير به كفيلٌ بقطعِ رأسِك العابث، في الماضي كان يُقتل كُل مَن يولدُ بسحرٍ ظلامي من العامة، نجا فقط النبلاء والأشخاصُ رفيعو المستوى من "التطهير" الذي تم منذ عقودٍ مضت وقد تفرّق الذين نجوا مذعورين، واهنين، وتواروا عن الأنظار.. أمّا أولئك الذين يفكرون باستخدام السحر الظلامِي في حربٍ ما فإن كُل مُستخدمي السحر مِن كل الأطراف المُتحاربة ستنعقِدُ هدنة فيما بينهم ليقتلوا ذلك المستخدِم! فهم يتشاءمون بالسحر الظلامِي كأنه الغراب!.. أمّا عن سبب تحريمه هكذا فإنني ومهما قرأتُ وتعلمتُ عن ذلك فلم أعثُر مع كل أسفي لجهلي على جذورٍ لتلك القصة..

تلك الذكريات وتلك المعلومات قد استحضرها عَقلِي عِندما سُئلتُ عن السحر الظلامِي، وبِكُلِّ تلهفٍ لمعرفة تتمة حديثه فقد أومأتُ برأسي باقتضاب حاثًا الفارِس الملكي لوثيار على المُتابعة، فتنهد الأخيرُ كمن يستَعِدُ ليُلقي قُنبلة شديدة الانفجار ثم قال:

ـــرِفقة جيش "آيريا" هنالك ساحِرٌ ظلامي..

ثم صمت وهو يتفحصُ ردة فعلي التي حَرصتُ على أن تُلامِس الهدوء بقدرِ ما يُمكن، ثم أكمل:

ـــوأنا هُنا لاغتياله..

في معركة رسمية لا يصِحُ أن تغتالَ العدو إلّا إذا كُنت لا تتمتَعُ بالشرف أو الكبرياء، على القادةِ أن يُقتلوا في ساحة المعركة.. ذاك هو القانون ولذا فإن اكتشف أحدهم أن قائدنا لُوثيار هُنا فسيجزمون بجبنه وبنيته لقتل قائِد الأعداءِ بوضاعة، لكِنَّ أعداءنا الذين خرقوا القوانين الرسمية باستخدام ساحرٍ ظلامي لهم البادئون، لذلك حتى إن كان قائدي ينوي اغتيال فارسهم الملَكي فأنا معه.. حتى النهاية.

ـــلن أقوم باغتيال فارِسهم الملكي فهو ليس الساحِر الظلامِي، تلك الخيانات ليست أسلوبي على أية حال..

قالها الفارِس الملكي لوثيار كأنه قد قرأ ما بذهني ثم أردف بوجهٍ شديد الجدية:

ـــلديهم ساحر متمرس في السحر الظلامي، يُدعى "نوت بالينجر" وهو يُمثل كونه نائب الفارس الملكي، سنتخلَّصُ منه على حين غفلة منه ثم سنعود أدراجنا إلى حيثُ معسكرنا.. عُقبها سأواجه الفارس الملكي لآيريا في صفوف المعركة وسأهزِمه..

حديثٌ مملوء بالثقة خرج مِن فيه، ابتسمتُ كما لو أن كلماتِه قد أهدت بعض ثقتِها إليَّ ثم سألت:

ـــأليس الفارِس الملكي لآيريا هو "إيزاك هاردينيوس"؟

ـــنعم، مجرّدُ ضعيفٍ قاد قُطاع الطرق لفترة ثم أرادوه ليقود هذه المعركة فتمت ترقيتُه إلى فارسٍ ملكي على عجل، عديمُ خبرة.

ـــحسنًا..

في داخلي كُنت أكثر مَن يفهم ما الذي قد يعنيه كونَك عديمَ خِبرة في ساحةِ المعركة.. اختبرتُ ذلك على نفسي حينما أُصيب هارولد جرآء عجزي.. ليتني أستطيع مُساعدة هارولد، لأفعل فعليَّ التحرُك سريعًا لكن..

حدقتُ نحو الشاب الواقفِ يراقِبُ قضبان الزنزانة الصدئة التي تحاوِل الشمسُ التألُق من خلفِها، هذا الشابُ يحمل قوة كبيرة جعلته أصغر فارسٍ ملكي في تاريخنا، أوّل فارسٍ ملكي لا يدرُسُ في الأكاديمية العسكرية.. وأوّل شخصٍ على الإطلاق يحمِلُ سحرين مختلفين مُتحكِمًا بهما، هو لغز، وهو موتٌ قربه الملك منه بغية ترويضه حتى لا يثور، هو فارِسٌ ملكي لا عِلم لي حتى الآن بما يستَطِيعُ فعله لذا لربما لديه القدرةُ على مُساعدتي بشأنِ هارولد، هارولد قد يكون ميتًا ولا أُريد حتى التفكير في ذلك الاحتمال الأسود، كل ما أريدُه هو الخروجُ من المأزق الذي يلتقفُني والعودة مع صديقٍ مُعافي وجيشٍ مُنتصر.. سأتجاهلُ حقيقة أنَّ طلب مُساعدة فارِسٍ ذي مكانة عالية كلوثيار هو خرقٌ للآداب وسأطلب مِنه عونه!

_لأساعِدك فلدي شرط وحيدُ.

قُلتها عالمًا أنها وقاحة قد تُكلفني رأسي ثمنًا لها وقد زادني الهدوءُ الغامرُ المنبعِثُ من لوثيار توترًا.. صمتٌ استمرَّ لثواني جعلت معها الهواء أثقل وأثقل ثم أخيرًا نطق الفارِسُ الملكي قائلًا:

_ما هو شرطُك يا إدوين؟

سعلتُ عقب زفير ارتياح ثم أجبتُ مخبرًا إياه عن حال صديقي وعن جُل ما واجهنا مُتأملًا أن يكون لديه طريقة لمساعدة هارولد حتى من مكاننا هذا وقد كان إذ قال لي قبل أن تشتغل النار من بين أصابِعه براقة كما الشمس

_يستطيع مستخدِمو سحرِ الوهم التواصل مع بعضهم ذهنيًا إن أرادوا ذلك بقوة كافية، لديَّ فارسٌ جيدٌ من مستخدمي سحر الوهم هناك في المعسكر، سأُبلغه وعندما تنتهي مهمتنا ستعودُ أدراجك لنجده قد قاد فريق الإسعافِ إلى حيثُ تركت المُصاب، لننطلق..

كان ذلك آخرُ ما قاله قبل أن ينصهِر معدنُ القضبان التي تسجننا تحت نارِه تمامًا.. إذًا فقد صدقت الشائعاتُ التي تهمِسُ بأنه مُستخدِمٌ لسحرِ الوهم ولسحر النار في آنٍ واحد..

أمّا الآن وأنا أخطو خارج الزنزانة خلفه فلم أستطع التفكيرَ إلّا بأمرٍ واحدٍ فقط..

"عليَّ النجاحُ في مساعدة قائدي على اغتيال ساحرٍ ظلامي دون أن أُقتل!"

...

_كيف قد نتسللُ عبر المُعسكر وهو ملئ بالجنودِ؟

سألتُ الفارس الملكي لوثيار بينما تواارينا خلفَ الجدارِ الحجري الخاص بالزنازين، الهواء الذي يبعثُه نسيمُ الصباحِ قد أثقل صدري ببرده وألمُ ذراعيَ اليسرى مَا يلبَثُ أن يهاجِمني بلا رأفة، الآن فقط أصبحتُ أدرك كم كُنتُ متهوِرًا لأنني سمحتُ لسهمٍ بأن يُصيبَني ظانًا أنَّ الألم شيءٌ هين مُطاق لكنني آمل ألا يُعيقَ قدرتي على القِتال..

أجاب لوثيار سؤالي قائلًا:

_سنشُق طريقنا عبر سحر الوهم.. لن يرونا.

عقبها مشى بفخرٍ سائرًا كمن يتقدم نحو حديقة لا نحو مُعسكرِ العدو، مِئاتُ الجنود كانوا يتناثرون في كُل الأرجاءِ كالنحل لكن ولا جُنديًا واحدًا منهم التفت إلينا، ولا واحدًا منهم قد أبصرنا، سِرتُ خلفَ قائدي وأنا أشد قبضتي على سيفي إلّا أنني أدركتُ بوجل أنني لا أحمِلُ سيفًا! لم يكن لوثيار يحمل واحدًا كذلك فخمنت أن الحرس الذين وضعونا في السِجن

قد صادروه كذلك فأبقيتُ فقط على تأهُبي مُستعِدًا لدرءِ أي خطرٍ بقوتي الجسدية فحسب.

سحرُ الوهمِ لهو لغزٌ كبيرٌ جدًا حتى بالنسبة إلى مهووسٍ بالمعرفة مثلي، لا أرتدي النظارات ولا أقوى على البقاءِ ساهرًا بين أكوامِ الكُتب طوال الليل، لستُ ذاك النوع من المُثقفين على أي حال لكنني أكره الجهل فحسب وأرى أن المعرفة أقوى الأسلحة، ولذا فقد كرستُ جل تركيزي لأي معلومة جديدة أتلقاها ولو في حديثٍ عابر ولربما فإن معرفتي قد جعلتني أُبالغ في غروري فلم أكن حتى هذه اللحظة أعلم أن سحر الوَهمِ قادِرٌ على التخفي، إذا ما نشدتُ الدِقة فإنني أظنُ أن سحر الوهم الذي يؤثِرُ على إدراكِ دماغِ المُستَهدَفِ للواقع والبيئة يخلِقُ صورة للنباتاتِ والأشجارِ وستار الصُبحِ الذي يلتفُ حَولَنا فيعمِيهم عن رؤيَتِنا، لكن ذلك يتطلَبُ طاقة كبيرة للغاية إن لم تكن هائلة.. تطبيقُ سحر الوهم على كل هذا العددِ من الجنود! إن امتلاك أحدٍ لهذا القدرِ من الطاقة والسِحر من دون أن ينهار، يُجن أو يفقدَ السيطرة لهو أمرٌ كنت سأدعُوه بالمُستَحيل لو لم أر لوثيار أمامي اليوم ينشُر سحره على كُلِّ هذا العدد دون أدنى قدرٍ من الإرهاق!

"مَا هِي حدودُ قدرتِك يا لوثيار؟!"

تساءلتُ وأنا أمضى ولم يطُل سيرُنا إذ توقفت بعد توقُفه خارِج خيمة تبدو مُنعزلة بعض الشيءِ عن باقي المخيَّم، لا حراس ليحرسُوها ولا يقترِب مِنها أحد، كما لو أنّها ملعونة تمامًا..

همس لي لوثيار بصوتٍ خفيض:

_هذه خيمة نائب الفارس الملكي نوت بالينجر، هو ليس مُستخدِم سحرٍ مِثلنا بل هو ساحر درس أكاديمية السحر، وفوق هذا ساحرٌ ظلامي كما تعلم ولا أدري مقدار تأثيرِ سحره على قوة سِحري.. في أسوا الأحوالِ.. سيبُطِلُه.

كلماتٍ قيلت بهدوءٍ لا يتناسَبُ والرعب الذي تحمِله، الفرق بين الساحر ومُستخدِم السحر أنّ الساحِر مُستخدِمٌ درس في أكاديمية السحرة فتضخم سِحرُه وقويَ حتى أصبح

يفوق معظم مستخدمي السحر الذين درسوا أكاديميات مُختلفة، نسبة لقوة السحرة النورانيين فإن معظمهم يعملُ في الحاجِز على الحدودِ مع مملكة الشياطين، ولا أريدُ أن أتخيل كم ستبلُغ قوة ساحرٍ ظلامي قد يتسبب في تلاشي سِحر الفارس لوثيار تمامًا!

"هل القوة الكبيرة التي يمتلِكُها الفارس الملكي لوثيار قد جعلته يُجن؟ ألهذا يقدِمُ على مهمة خطيرة كهذه؟.. لكن ماذا عني أنا الذي أتبعُه؟"

إصبعانِ للأعلى ثم ينخفضانِ ليؤشِرا على اتجاه مدخلِ الخيمة، أوامِرٌ صامِتة ألقاها قائدي لا أحتاجُ لنُطقٍ لكي أفهمها، سيحرِقُ لوثيار الساحِر بقوة ناره ريثما أُحاوِلُ إلهاءه، هذا في أحسنِ ظروفِنا أمّا في أسوئِها فسنسلُب سيفًا من الداخِل، قد نخوض قتالًا بالأيدي كذلك ثم سنشقُ عُنق الساحر مع أنني أتمنى حدوث الاحتمال الأوَّل..

"لماذا لم يجلب الفارس الملكي لوثيار معه شخصًا أقوى مني ليُسانده إن كان هنالك احتمالٌ حقًا لعدم عمل قوته؟"

تساءلت بعبثٍ ولم أفكر كثيرًا فقد تحرّك جسدي ليُطيعَ الأوامِر واقتحمتُ رِفقة لوثيار تلك الخيمة في آن واحد.. خيمة مظللة بالعتمة تفوح برائحةِ الموتِ البارِدة.

الفصلُ السادِس

ساحِرٌ خَبيث!

إذا ما أخبرني أحَدُهم ولو مازِحًا أن أهم مُهمة في أوَّل مَعركة لي أخوضُها في حياتي ستكُون ضِدَّ ساحِرٍ مُختل.. لوصفتُه بالجنون!

الخيمة التي داهمناها أنا وقائدي الأصهب قد خفتت تفاصيلها بسبب العتمة، أول ما وقعت عليه عيناي هو سيفٌ ملقى بإهمالٍ قبضتُ عليه بكفي على عجل، أكوامٌ من الصنادِيقِ القديمة تكدَست في كومَتين على يمين ويسارِ المَدخل.. دائرةٌ من الشموعِ المُشتعلة بخفوتٍ تشِعُ في المُنتَصَفِ جاعلة رائحة احتراقٍ مُنفرة تنبعثُ في الجو كرائحة الدِهن، شموعٌ بتلك الطريقة تُحِيطُها طلاسِمٌ غيرُ مفهومة قد بثت فيَّ رُعبًا جعل البرودة تسري في عمودي الفقري.. تساءلتُ إذا ما كان الساحر يُحضِرُ لإلقاءِ تعويذة ما، تعويذة لا أفقَهُ عنها شيئًا سوى أنها لا تُبشِرُ بالخَير!

لربما سُلِب انتباهي بسببِ الشموعِ السبعة المتراصة أو لربما أعماني توتُري الغريزي من مهمة صعبة كهذه لكنني أعتَبِر الوقت الذي أدركت فيه أنَّ هنالك شخصًا متدثرًا بغطائه يضجعُ على البساط وقتًا كان كافيًا لأتعرض فيه لهجوم مباغتٍ منه مما يعكِسُ بطئي..

أشار لوثيار لي لأخطو للأمام، تقنيًا فقد كان يجِبُ أن أوجه طعنة للراقد نائمًا على افتراض أنه الساحِرُ الخارج عن القانون نوت بالينجر، وفي مهمة كهذه لم أكن لأسمح لنفسي بأن تظهِر مَخاوِفها ولن أتراجع!.. الشراراتُ التي أطلقها لوثيار قد غدت أكبر حتى تأججتِ النارُ في قبضتيه، ناره السحرية البرتقالية قد حملت لونًا فضيًا خفيفًا عند أطرافها الحارقة وسيفي المرفوع لأعلى مُستعدًا للطعن قد عكس ألوانَ اللَهب برقة.. كتمتُ أنفاسي تلقائيًا وشددتُ قبضتي ثم أنزلتُ السيف مُخترِقًا الهواء بسرعة برقٍ لينغرِس عبر الأغطية ويقاوم اندفاعي كأنما أخيرًا قد ثقب صدر الساحِر المُجرم.. قُتل ساحِرٌ خالف القانون الدولي واستحَق أن يموت.. أو أن ذلك فقط ما ظنَّته نفسي الواهمة! إذ أن أول خُطوة قد خطتها قدمُ لوثيار داخِل دائرة الشموعِ تلك بينما كان يسيرُ باتجاهي قد كانت أسوأ خطوة في حياتِه، برد الهواءُ فجأة عُقب انطفاءِ نارِ لوثيار المُفاجئ وقد تزامن ذلك مع موجة من الطاقَةِ

السحرية التي عُبئ بها المكانُ حتى فاض وامتلأ.. ومَع كُلِّ تراكمٍ لها أحسست أن أنفاسي تُسلب أكثر وأقسى..

ـــأيها الفارس الملكي!

صِحتُ متوترًا وأنا أرمقه بنبضٍ متسارع فرد عليَّ بصوتٍ أحسبُه يحملُ نبرة سعادة حاول جاهِدًا إخفاءها لكنها هربت:

ـــسُلِب سِحري يا إدوين، يبدو أن هذه الدائرة تحمل تعويذة السلب النادرة..

ـــلقد تنبأ الساحِرُ بقدومِنا.. والذي طُعن هل هو خُدعة؟!

هكذا همستُ ثم أكملتُ في نفسي

"لقد كانت الدائرة فخًا يقدر شخصٌ بمستوى لوثيار على توقُعِه، إذًا لماذا رمى نفسه بداخِله؟ ولماذا بدى سعيدًا حتى! رأسي سينفجر من ضغط هذه الطاقة السحرية كذلك! لكن.. لكن أليست هذه طاقة مُماثلة لتلك التي جعلتني أفقد الوعي في الغابة!"

فجأة شق وهجٌ رماديٌ الظلام.. عينان فيهما برودة الموت أطلتا ثم بدأ يتشكلُ خَلفَهُما جَسدٌ مُغطى بالقرمُزي عرفته على الفور.. بشعرِه الأسود ووجهِه الأربعيني يستحيل ألَّا أتذكر أنه قائدُ الجماعة التي هاجمتني رفقة هارولد، نفسه الذي قاتلتُه وأفقَدني وعيي..

بتعابيرٍ مبتسمة بخباثة انحنى الرجل ونطق باسمِه:

ـــنائِبُ الفارِس المَلَكي نوت بالينجَر.. في خدمتكما أيُّها السيدانِ.

ـــخبيثٌ كالعادةِ يا بالينجَر ولم تُغيّر خُططك الصَدِئة منذُ تقاتلنا آخِر مرة.. لازلتَ تهوى مُخالفة القانون الدولي باستخدامِك للسحر الظلامِي.

هكذا رَد الفارِسُ الملكي بثقة فأجابه الساحِرُ المدعو نوت:

ـــإن كُنت تعلَمُ بخططي الصَدِئة فلمَ انطلت عليك إذًا؟! لازلت غَير مُبالي كعادَتِك يا بن فاري.

_أنا فقط أردتُ اختبار مدى كفاءةِ تعويذَتِك في ابطالِ قوتي، لا ضير من أن التقِط أنفاسي طاردًا ثقل قوتي.. خاصة في وُجودِ فارسي القوي.

قالها مُلتفِتًا إليَّ، ضاقت أنفاسي أكثر بمُجرّدِ أن أدركتُ أن قائدي الذي يبدو عليه أنَّ لهُ معرفة قديمة ببالينجر لم يَدعُني بلقَبِ فارِسٍ إلَّا ليُلَمِح لي أن هذا قِتالُ فُرسان.. قِتالٌ أُطالب فيه بالارتقاء لرُتبة فارسٍ وقتل بالينجَر.. في الغالب وحيدًا!

تحركتُ مسلوبَ الأنفاس مُثقلًا بسبب الطاقَة الهائلة التي يبعثُها الساحِرُ قاصدًا بها دفعي للانهيار، رفعتُ السيف في وجهه فتشنجت عضلاتُ ذراعي بموجة ألمٍ قاسية جعلتني الرؤية تزدوِجُ أمامِي لكن حتى هذا الألَمُ القاسي لن يوقفني اليوم! سئمتُ ضَعفي وإن كان قائِدي قد كلفني بمهمة فسأُكرِسُ نفسي لها بكُل عزيمة.. وقبل كل شيء أردتُ أن أُثبت لنفسِي أنني لستُ بذاك الضعف وأنني قادِرٌ على حماية أصدِقائي.. كهارولد..

كادت ضربتي أن تفصل عُنقه عن جسدِه لولا أنه تحرك نحو يمينه مُتفادِيًا لكنني لم أُتِح له الفُرصة إذ عكستُ اتجاه سيفي نحوه متجاهِلًا الأوجاع التي يسببها سِحرُه والتي تمزِقُني..

شرعنا في القتال، أنا أُحاوِلُ إصابته وهو يتجنبُني بسرعة غير قادِرٍ على تحريك يديه وقد خمنتُ أنه لربما ذلك شيءٌ ضروري للإبقاءِ على التعويذة التي تسلبُ قوة قائدي..

انزلقت قدمي وأنا أهجُم فتطلبنِي الأمرُ ثواني لأقومَ بتثبيتِها وقد كانت تِلكَ الثوانِي كافية للساحِر ليستَغِل فُرصَتهُ ويغرِس كفه في معدتِي تمامًا ووجهُه يَحمِلُ ابتسامة عابثة لا تشي بأنَّ الأمرَ مُهِمٌ عنده حتى! لم أكن خصمًا جديرًا حتى بأن يحظى باهتمامِه! والآن أتهاوى لتحتضِنني الأرضية البارِدة الغارِقةُ بدمي بينما أستجمِعُ قوتي لأُلقي فقط نظرة أخيرة على تعابير قائدي قبل أن أستَسلِم.. وقد كان لوثيار غاضِبًا.. غاضِبًا كما لم أره قبلًا لدرجة أن يديه ترتَجِفان!

"كيف سمحتُ لنفسي بأن احكُم مُسبقًا أن يدي الساحِر لا تستطيعانِ الحركة للإبقاء على التعويذة! لقد كان يظُن فقط أنه لا يحتاجُ إلى كِلتا يديه ليهزمني لأنني ضَعيف!.. كلا، حتى لو لم أسجُن نفسي في توقعي الواحد لم أكن لأتخيّلَ أن يديه العارِيتين قادِرتانِ على اختراقِ جسدي كالخنجر.."

بالنسبة إليَّ فقد راقني احساسُ استقبالِ الأرضِ لجسدي، الدنيا التي بَدأت تُعتِم والألَمُ الذي ما عُدتُ أشعُر به قد خدرني.. شيءٌ ما في حلاوة النهاياتِ يجذبُني لكن.. لكِنَّ نظرة لوثيارِ الغاضبة ما انفكت تتردد أمامي، هل هو غاضِبٌ عليَّ لأني خَسِرت؟ هل كُنت جُنديًا فاشِلًا وقاتلتُ قِتالًا مُخزيًا حتى النهاية؟ أم هل أضحى قائدي يرى فيّا ما رآهُ والدي قبله

"مَلعون.. مُجردُ فتى ثائِرٍ يَرى الحَرب لُعبة ما"

لربما إن التَقفَني الظلامُ هنا..

إن التقفني الظلامُ هنا..

هُنا..

فلسوفَ لن أكونَ إلَّا فتى ملعونًا رأى الحربَ لُعبة ما! خسِر صَدِيقه وخَذل قائِده ويموتُ بشكلٍ مُخزيٍ!

وحسنًا.. إن ذلك الفتى.. ليس أنا!

الدماءُ اندفعت لتتدفَق خارجة من فمي بينما تنسَكِبُ على الأرض، آلامي اختلطت حتى ما عُدتُ قادرًا على تميزها وإلى أُذُني ما عاد يَصِلُ صوت حوارِ الرجُلين مُطلقًا.. فقط البرودة التي تحتضِنُني وسيفي الذي قبضتُ عليه فبدى أثقل مما كان بكثير.. وأنفاسي التي تُسلب وساقاي اللتانِ وقفتا بصعوبة ثم اندفعت صوبَ العدو بتهور.. أُدرِكُ أنَّ جُرحي مميتٌ وأن حياتي قد انتهت وليس لدي ما سأخسَرُه، كما أُدرِكُ كذلك أن الإنسانَ إذا لم يملِك ما يخسَرُه أو إذا امتلك ما يُدافِعُ عنه فلن يُمكِن إيقافُه حتى آخِرِ أنفاسِه..

لم يستطِع الساحِرُ مهما بلغت فِطنتُه أن يتوقع أن شبه جثة ستنهَضُ لتُقاتله وتهجُم عليه ولهذا فإن عامل المُفاجأة الذي أفادني كثيرًا قد سمح لي بإصابته بشقٍ مَزق يده التي حاول

الاحتماء خلفها عندما أدرك أن الوقت لن يُسعِفه حتى لاستخدام سحره لإسقاطي قبل نيلي منه، ترنح ثم استشاطَ غضبًا ومع مشاعِره المُتأججة شعرتُ كأنَّ سِحره يضغَطُ على أضلعي ليُحطِمها.. لكنَّ ذلك ما كان يهمني فقد أحسستُ أنني افقد خيوط عقلي مع كل قطرة تُراقُ أرضًا مِن دمي.. ما عاد يهمني شيء وهل سيهتمُ شخصٌ سيموت على كل حال؟ لم أر أمامي سوى اندفاعي الأعمى نحوه.. تقاتلنا بشراسة وسط صمت لوثيارِ المُطبِق.. والآن مع احتدامِ هجماتي وتزايُد هرب خصمي الذي لا يقاتل حامِلًا سيفًا وإنما يقاتِلُني بذراعه التي شققتها بسيفي سابقًا فجعلتُها نازفة فقد أضحى بإمكاني أخيرًا استيعابُ نوع السِحر الظلامِي الذي يستخدمه خصمي.. سِحرُ الصلابة إذا كان ظني صحيحًا وهو ما يسمح له بجعل جزءٍ من جسده صلبًا كالفولاذ إن أراد وقد كان يُصلب يمناه التي أصابني بها أما الآن فقد صلب يُسراه التي أصبتُها ليخفف نزيفها.. ذكيٌ ولكنه يخافُ على نفسِه.. على عكسي!

ركضتُ بسرعة وأنا أنخفض لتفادي ضرباته بينما يتعمد هو نشر سحره ليضغط عليَّ أكثر فأكثر، قطع سيفي الهواء باتجاه عنقه لكن يده المُتصلبة أوقفت سيفي وتصادم كلاهما بقوة وكُلٌ مِنا يدفع بجُهد، ليس هنالك خنجرٌ بحوزتي لأُباغته كما المرة الفائتة لكن هذه المرة ابتعدتُ عنه وانحنيتُ مستهدفًا ساقيه وقد امتلكتُ أفضلية الهجوم.. وتمامًا في تلك اللحظة التي قفز فيها للخلف ليتفاداني تركتُ توازني ليختل بينما ألفُ ساقي وأسقُط بكامِل عبئ سيفي فوقه وقد لامس سيفي الحاد عُنُقه ونحنُ نهوي صوبَ الأرض.. عندها وفي تلك اللحظة وقبل أن يتدحرج شيءٌ دائريٌ بعينين رماديتين باردتين على الأرضية الغارقة في بحيرة قانية فقد مَدَّ الساحِرُ كفّه المُتصلبة نحوي في تركيزي الشديد على ضربه بسيفي وإهمالي لدفاعاتي وعندها شقَّ في صدري شقًا وصل لرِئتي حتى أحسستُ بالدماءِ وهي تحِلُّ محل الهواءِ وتخنُقني.. وفي لحظتها سقطنا.. الساحِرُ مقطوعُ الرأس وأنا.. أسعُل دمًا يخنُقني وأودع حياتي بصمت ووعيي الذي دعوت أن يتلاشى سريعًا قد ودعني بلا ظنٍ مني أني قد أُقابله مُجددًا.. يا لقسوة النهايات!

يبدو أنني ملعونٌ حقًا..

الفصلُ السابِع

نائِبةُ الفارِس المَلكي

لا أدري كم من الوقتِ قد مَرَّ عليَّ وأنا أُجاهِدُ لأدرك أين قد أكون، إذ أن رؤيتي التي قد استعدتُها بصعوبة جمة كانت ضبابية بشدة وقد أبت أن تتحسنَ إطلاقاً وكلُ ما عَرضتهُ أمامي كان عبارة عن ألوانٍ بيضاءٍ متداخلة مع ما حولها بفوضوية جعلتني فَزِعًا كثيرًا فشرعتُ أحاول تحريك جسدي الثقيل الذي تصلب ورفض الاستجابة بسلاسة حتى أطاعني بعدَ محاولاتٍ عنيفة وتمكنتُ من الاستقامة جالسًا بسرعة شديدة أذتني بدوارها وآلامها أكثر مما نفعت جاعلة إياي أشهقُ كمن يُسلَبُ الروح!.. ثم عقبها وأخيرًا استطعتُ الإبصار كما ينبغي دون تشوش وقد كان أوَّل ما وَقعت عليه عيناي هو ذلك الوجهُ المذهول الشاحِب الذي يحدِقُ فيَّ بعينينِ عسليتينِ مُرهقتين والذي سرعانَ ما تحول ذهولُه لفرحة صادقة وهو يهمِس:

ـــاهدأ يا إيفان! أنت بخير..

ـــأليكس!

نطقتُ بصوتٍ جافٍ خافت فوقف أخي وكأنَّما خرج من صدمتِه التي أسرته وحَمل سماعته التي كانت ملقاة على الطاولة بقربِه واقترب مني كطبيبٍ لا كأخٍ وهو يتحدَث مُتمالِكًا نفسه مواريًا فرحته الجلية لاستيقاظي من غيبوبة على ما يبدو:

ـــما هو اسمُك الكامِل؟

فأجبتُه بوهنٍ:

ـــإيفان فانير إدوين.

ـــكم عُمرك؟

ـــاثنانِ وعشرون عامًا..

ـــاستلقي..

قالها آمِرًا ثم ساعدني على تمديدِ جسدي على الفراشِ الأبيض البارد وواصل:

ـــهل تُدرِكُ أين أنت الآن يا إيفان؟

_مستشفى ربما؟

أجبتُه فاقترب مبتسمًا وأخذ يقيسُ نبضي ريثما يُكمِل:

_المستشفى الملكي بالعاصِمة..

_آه!

قلتها مُتفاجئًا ثم تركته ليُلقي قنبلة أكبر

_وقد ظللت فاقِدًا وعيك لمُدة ثمانية وعشرينَ يومًا..

_رباه! ماذا عن هارولد يا أخي! أهو بخير؟ فتى يُدعى هارولد كاستل كان معي في الجيش و..

قاطعني أليكس عابسًا بفتور:

_لا أعرفُ عمن تتحدث فلم يخبرني أحدٌ بشيء.

كلماته تلك بدل أن تطفئ نار قلقي قد صبت عليها زيتًا جعلها تتأجج فأخذت دوامة من أفكارٍ سوداء تعصف بذهنِي بغتة ومضيتُ أتساءل عن الشخص الوحيد الذي قد يعلم ما حل بصديقي ألا وهو قائدُ جيشنا نفسه.. ذاك الذي وجب أن أهرول إليه فورًا!

نهضتُ من الفراش ورأسي يعصف بالدوار بينما يقول شقيقي كلماتٍ لم تصل إلى أذني مطلقًا لأن كل ما كنتُ مركزًا عليه هو الإسراع بالخروج من هذا المستشفى ومعرفة مصير هارولد.. لكنني أنا الذي ظللت نائمًا بأسى قد خارت قواي وتيبست عضلاتي لتلك الدرجة التي ما إن خطوتُ معها مجرد خطوة على الأرضية الباردة محاولًا المشي حتى انهار جسدي وتهاويتُ أرضًا ولولا أخي الذي اندفع نحوي بقلق وساعدني رغم اعتراضاتي لأعود لفراشي لكنتُ قد وصلت ولو زاحفًا إلى حيثُ يجلس هارولد.. ذاك الشاب الذي لولا ضعفي لما كان قد أُصيب!

_ستستطيعُ المشي رويدًا رويدا فتحلى بالصبرِ يا إيفان! بهذا الاندفاع ستؤذي نفسك!

قالها أخي موبخًا بغضبٍ جعلني أصمتُ ثم تنحنح جاذبًا انتباهي وسأل:

_ما هو آخرُ شيءٍ تذكره قبل غيابِك عن وعيك؟

_حسنًا..

أجبتُ محاولاً استحضار صورٍ لا زالت مشوهة في ذاكرتي.. وواصلتُ المحاولاتِ التي أصابتني بالصداعِ قبل أن تلمع الذكرياتُ في عقلي كوميضِ البرق وتُفزعني برعب!

_كنت أُقاتلُ ساحرًا.. نوت بالينجَر!

ومع كُل كلماتٍ نطقتُ بها لم يخفَ عليَّ عبوس أخي وقلقُه معها لكنني أكملتها على كل حال:

_كانت مُهمة رفقة الفارس الملكي لوثيار ألفرين وقد واجهت عندها الساحر وحدي و.. وضربت عنقه ولكنه أصابني مرتين.. وكلتا المرتينِ كانتا كافيتينِ لقتلي فلماذا.. لماذا أنا على قيد الحياة؟!

_هذا..

همس أليكس ثم توقف عن فحص نبضي وبدلًا عن ذلِكَ أخذ يفحص ساقاي ويتحدث:

_مَن أخبرني بهذه القصة هو الفارس الملكي ألفرين شخصيًا.. فقد جاء رفقتك إلى المُستشفى هو ونائبتُه المدعوة ياسِن آزورش..

_ياسن؟ لقد أخبرني أنه نائِب!

_نائبة يا إيفان.. حسنًا..

بلل ريقه ثُم أردف:

_حالتُك كانت شبه مُستقرة عندما وُضعت بين يدي على الرغم من فداحت الإصاباتِ التي تكبدتها في قِتالك ولا يرجِعُ الفضلُ في ذلك لأحدٍ إلّا للنائبة آزورش.. عالجتك هي على ما أعتقد.. أُعذر جهلي بالتفاصِيل لكن الأمر المُهم الآن هو أنها فقدت قوة سِحرها نتيجة لعلاجك وهي منذ مجيئك هُنا نائمة في الغرفة التي تُقابِلُك تعاني من مشاكِلٍ مُرهقة في رئتيها وفقر دمٍ حاد.. بسبب علاجها لك على حسبِ ظني!

"هل عرَّض أحدٌ ما حياته للخطرِ لأجل إنقاذِ شَخصٍ استقبَل الموت بصدرٍ رَحِب!"

تحسرت.. صمتتُ ولم أعرف ماذا يجِبُ أن أقول لكِنَّ أليكس الذي كان دائمًا ما يفهمُني دون حاجة مني لأبوح بما يخنُقني قد غير دفة الحديث باتجاه بحرٍ مشرقٍ وهو يهمسُ:

ـــأترى أزهار اللؤلؤ على الطاولة؟

ـــنعم..

ـــأتذكُر؟ تلك الأزهار تشتهِرُ في المدينة التجارية الشمالية.. حيثُ مسقط رأسِ والدي ومن هُناك تكلف والدي كل تلك التكاليف ليحضر هذه الأزهار فقط ليهديك إياها على أمل أن تُشفى..

فقاطعتُ كلماته متعجلًا:

ـــأتعني أنَّ أبي قد زارني!

فهز شقيقي الأكبر رأسه مؤكدًا ثم رق صوته وهو يقول:

ـــزارك مِرارًا.. وفي كل لحظة اعتقد أنك ستموتُ فيها بكى كطفلٍ صغير يا إيفان.. أتعلم أيضًا؟ ساعدني صديقك الدكتور لوين الذي اهتم بك بدلًا عني في كثيرٍ من الأحيان.. كذلك أتى جايد وآرثر إلى هُنا على عجل.. لم يجلِسا ولم يُحدثاك لكن تعابيرهُما حكت كل ندمهما وخوفهما من فقدانك.. مهما كُنا يا إيفان..

فأكملت كلماته التي عجز عن إكمالِها:

ـــمهما كُنا فنحنُ عائلة وجذورُ الأشجارِ مهما تفرعت دائمًا ما تقود نحو أصلٍ ومسارٍ مُشترك.

في اليوم التالي استيقظتُ متأخرًا قرابة منتصف النهار، أماكِنُ جراحي لازالت تنبضُ بالألمِ بين الفينة والأخرى لكنه ألمٌ قابلٌ للاحتمال، ساقاي اللتان تيبستا من طولِ غيبوبتي قد نالتا نصيبًا وافرًا من التدريب على أن أخطو مجددًا رفقة شقيقي بالأمس أما خيالُ صديقي الذي أجهل مآله فقد ظلَّ يؤرقُني بشدة ولا تنفك صورته وهو مغطى بدمائه ويصارِع

وحش الموتِ تقتحِمُ نطاق بصري.. واليوم فإني ما لبثتُ أن فتحت عيني بعد كل هذه الكوابيسِ وانطلقتُ أُفكِر:

"متى سأستطيعُ المشي جيدًا؟"

"عليَّ أن أخطو سريعًا حتى أستطيع المشي ورؤية هارولد.."

"كذلك أرغبُ برؤية تلك النائبة التي تعاني الآن فقط لأنها أنقذتني.. عليّ استعادة صحتي سريعًا لأجل ذلك، أظنني إذا تدربتُ اليوم بجد فسأخطو مجددًا غدًا.. سأستطيع لقاءها وشكرها ثم..."

ـــإدوين!

نادى الصوت وهو يطرق بضع طرقاتٍ خفيفة على الباب، كان صوتًا قويًا وجادًا بنبرة استطعتُ التعرف على صاحبها جيدًا.. كان لوثيار ألفرين يقفُ ببابي تمامًا كما لو أنه شعر برغبتي القاهرة في لقائه!

ـــتفضل!

أجبتُ بتعجلٍ كأنما أخشى هروبه ثم عقبها فُتِح البابُ وأطل من خلفه هذا الفارِسُ الملكي الغريب.. طويلٌ القامة يرتدي السترة الخضراء للجيش، عيونه الزرقاء التي تشابِه البحر كانت أقل حِدة تحت وطأة ابتسامة متزنة وجهها نحوي.. أمّا شعره ناريُ اللونِ فلم يتغيرِ البتة وظل يطفى على صاحِبه لمحة مهيبة غريبة..

ـــكيف حالُ جسدك؟

سألني وهو يسحبُ الكرسي الخشبي الوحيد في الغرفة ويجلِسُ عليه ثم يردف:

ـــمِن الجيد أنك ما زِلت حيًا يا إدوين.

ـــأجل..

أجبتُه ثم غيرت دفة الحديث بنبرة جادة للغاية قائلًا:

ـــهل أنقذت صديقي؟ هارولد كاستِل..

ـــنعم، هو بخير وهو الآن في "المدينة العسكرية".

ـــلماذا ذهب إلى هُناك؟ هو مصاب و..

فقاطعني بهدوء مَن يُدرِكُ أنني لا أفقه شيئًا قائلًا:

ـــوالدُه.. الدوق "آندري فوكالت" هو القائدُ العسكري المشرفُ على المدينة العسكرية وهو فارسٌ ملكي مُتقاعد وقد أصر على أن أرسل ابنه إليه ليكمل علاجه هناك في منزِله..

ـــرباه لكن اسم عائلة هارولد هو كاستِل وليس فوكالت!

ـــمشاكِلٌ أسرية ربما..

همس بها لوثيار في إشارة منه إلى أن هارولد هو مَن غير اسمه بنفسه ثم سخر قائلًا:

ـــأنا متفاجئ بعض الشيءِ لأنك تجهلُ أصل صديقك ونسبه.

ـــإذا كُنت قد جئت لتسخر مني فأنت تعرِفُ أين الباب.

قُلتها بحدة فصمت الأخير للحظاتٍ توقعتُ عقبها أنَّ أقل ما سيفعله ستكونُ ضربة قد تحطمُ فكي أو أنَّ شارة التجنيد خاصتي ستُصادر حتى أجلٍ غيرِ مُسمى، ثم إنني وعلى كُلِ حالٍ لم أكن أُطيق الفارس الملكي الجالس قبالتي مطلقًا.. خاصة بعد آخر مرة دفعني فيها لأقاتل وحيدًا دون أن يمُد يد العون حتى راميًا إياي نحو أنياب الموت في حين أنه لو حرك يدًا واحدة فقط حينها لكنتُ تجنبتُ معاناة غيرَ ضرورية، إنني لا أستطيع إلّا أن أمقت كل ما لم أفهمه من تصرُفاتِه!

ـــاسمع يا إيفان..

قالها كمن يستعِدُ ليلقى بعدها كلماتٍ مهمة للغاية مُناديًا إياي لأول مرة باسمي دون اسم عائلتي ثم واصل:

ـــقبل خمس سنوات عندما لم أكن أبلغُ من العُمرِ إلَّا سبعة عشر عامًا كان هنالك نقصٌ في الجنود جعلهم يسمحون لكُل من يستطيع حمل السلاحِ بالمشاركة في القتال وقد ذهبتُ في

تلك المعركة الاضطرارية حاملًا سيفي الذي به ثُرت وقتلت كُلَّ من اعترض طريقي، فسحراي اللذان يتصارعانِ داخلي بقسوة قد كانا يحرِقانني من الداخِل بوحشية وإنني لما علِمتُ بوجودِ ساحرٍ ظلامي يستطيعُ تنفيذ تعويذة تُلغي القوى السحرية فقد تُقت لملاقاة ذلك الساحر ولذا فقد رميت بنفسي في تلك المعركة بتهور.. كنتُ أسألُ كل من أوجهه:

هل أنت الساحر الظلامِي نوت بالينجَر؟

وعندما يجيبُني بـ"لا" أسفِكُ دمه بسرعة لأنتقل لمن بَعده.. حينها قتلتُ الفارِس المَلَكي للأعداء أثناء بحثي دونَ حتى أن ألحظ ذلك وسلمتُ لمملكتنا نصرها على طبقٍ من فضة دون أن ألحظ أيضًا لتلك الدرجة التي سكن فيها الجميع واتجهت أعينهم فقط نحوي وهم يراقِبونَ وحشًا بدلًا عن إنسانٍ يقتُل ضعافًا من الأعداء خسروا واستسلموا ولو أن حليفًا وقف في وجهي آنذاك لكنتُ أجهزت عليه كذلك! حينها ارتكبتُ مجزرة مفزعة وأنا غيرُ واعي بذاتي مدفوعًا فقط بألمي وبقوتي التي تحرقني وتؤذيني من الداخل..

أخذ لوثيار نفسًا عميقًا وهو يواصِلُ حديثه بأنفاسٍ متقطعة:

ـــحينما ظهر الساحِرُ أمامي أطلقتُ سحريَّ كليهما في وقتٍ واحد وقد تسبب سحر النار الذي لم أكن محكمًا تحكمي به في حريقٍ التهم كل أخضرٍ من حولنا وجعل الناس والفرسانَ يلوذون بالفرار وهم يصرخونَ بأن شيطانًا ثائرًا يحاوِلُ قتل الجميع.. حينها لو لم يستخدم نوت تعويذته لإبطالِ سحري لكان قد استحال قطعة فحمٍ سوداء.. أما أنا الذي شعرتُ لأول مرة منذ زمنٍ بعيدٍ بالراحة من هذه القوى المُعذبة فقد صحتُ سائلًا الساحر عما إذا كان يستطيعُ قتلي وأنا مختومُ القوى لكِنَّ الفارس الملكي القائد لمعركتي قد تدخل في ذلك وهاجم الساحر وقد لاذ الأخير بالفرار..

ثم صمت كأنما قد فرغ مما كان مُهمًا في حديثه فاضطررت لأكمل بما اعتقدت أنه سيقولُه:

ـــثم بفضل قوتك التي شَهد لك الجميعُ بها قربك الملك منه وتمت ترقيتُك لرتبة فارسٍ ملكي لتصبح أول فارِسٍ ملكي لا يلتحق بالأكاديمية ولتصبح كذلك الأصغر..

_أجل، مجردُ طفلٍ أهوجٍ جاهد ليتخلص من الألم دون أن يُدرِك أن ذاك الألم سيظلُ يعيشُ بداخله إلى الأبد..

_أتقصدُ أنك!..

قلتها بانفعال فأجابني بابتسامة جانبية:

_نعم.. لازلتُ أشعر بتصارع قواي بداخلي كأنما تسلبني أنفاسي.. لازالت تحرقني في كل ثانية تمر بألمٍ اعتدت على التعايش معه حتى نسيتُ كيف يكون شعور ألا يتألم المرء..

كان لوثيار وهو يتحدثُ عن شيءٍ يفزعني حتى مجردُ التفكير فيه يتحلى بالهدوء المطلق كما لو أنه يصِفُ آلام جدارٍ ولا يصفُ آلامَ نفسه! ثم استطرد مخبرًا إياي عن السبب الذي جعله لا يساعدني في معركتي..

_عندما علمتُ أن ذلك الساحر الظلامِي لا زال حيًا قد أسرنِي شوقي لشعور الخلو من الألم فانطلقت ناويًا أن أغتاله بعد إجبارهِ على الإفصاحِ عن تعويذته تلك لكنك ظهرت أمامي وقد قدرتُ أن قوتك كافية لقتلِ ذلك الرجل بينما استمتِعُ بلحظاتٍ من ختم قوتي.. لكن عندما أُصبت أنت بتلك الطريقة شعرت بالغضب العارم يجتاحُني لا على أحدٍ إلاّ على نفسي!

قالها ثم أعقبها باعتذار بدى لي صادِقًا للغاية، اعتذر لأنه كان أنانيًا ولم يظن أنني سأُصابُ لتلك الدرجة الفظيعة ولما شعرتُ بصدق كلماتِه وقدرتُ أن شخصًا بمثل مكانته سيكلف نفسه ليأتي إليَّ فقط ليعتذر بينما يختزِنُ ويحتمل بداخله كل هذا الألمِ الذي لا يُطاق فقد أخبرته بصدقٍ كذلك أنني لا أحمل أي ضغينة تجاهه وأنني متشرفٌ على كل حال بخدمتي لقائِدي..

_أتريدُ الذهابَ لرؤية آزورش؟

_نائبتُك التي أنقذتني!

فابتسم الفارِسُ الملكي وأردف:

_انهض، سأخبرُك عنها في طريقنا.

شعورُ أن أغوص بيدي داخل كم قميصٍ أبيض وأن أرتدي بنطالًا رماديًا عاديًا بعيدًا كل البعد عن رداءِ المُستشفى الأزرق الباهت كان شعورًا طيبًا للغاية استقبلتُه بكل رحابة صدر..

الضربة التي تلقيتُها فوق بطني قد تركت خلفها شقًا بطول بضعة سنتيمترات خيط بعناية طبية مذهلة وقد كاد أن يتماثل للشفاء المطلق الآن، أمَّا بشأن آخر اصاباتي حينما شقت يدُ الساحِر صدري ومزقت جزءً من رئتي المختبئة خلف أضلعٍ كُسرت فقد بلغت دهشتي قمتها وأنا أغلق أزار قميصي بعد أن رأيتُ المعجزة أمامي..

"لا يوجدُ أي إصابات.. فقط أثر جرحٍ قديمٍ للغاية ولا يؤلِمُ البتة.. أهذه قوة النائبة آزورش التي أنقذتني يا ترى؟ نعم.. نعم فهذا يتخطى حدود سحرِ الشفاء الطبي!"

_أستعود لحملِ سيفك في المعاركِ القادمة؟

سألني لوثيار بصوتٍ ثابت لم يبدو وكأنه يُبالي حقًا فأجبت إجابة مبهمة قائلًا:

_الأمر يعتمِدُ على عدة عوامل..

ثم أردفتُ سائلًا بفضول:

_هل الفارس الملكي الذي كان يقودُ الأعداء قد قُتل؟

_نعم، القضاءُ عليه لم يكن صعبًا وقد كانت خطتهم بالتسلل إلينا ووضع المنومِ في طعامنا قمة في الغباء وسرعان ما كشفناهُم..

صمت قليلًا ثم ابتسم وهو يقول لي:

ـــنائبي آزورش ذكيٌ حقًا فهو مَن كشفهم..

ـــلكنها فتاة لماذا تتحدثُ عنها وكأنها رجل؟

ـــآه..

تعجب من سؤالي كأنما كان أمرًا لم يفكر فيه البتة لكنه بحث في عقله عن إجابة محتملة ليلقيها إليَّ مع ابتسامة جانبية:

ـــعندما عُيِّنَ أول نائبٍ لي "ألفريد آزورش" كان شقيق الفتاة ياسِن آزورش الأكبر وقد قاتلنا سويًا لسنواتٍ طوال حتى قُتِل قبلَ عامينِ في أحدِ الأيام وهو في ساحة المعركة.. في الواقع عندما رأيتُ شقيقته في تخريجِ الدفعة التي تسبقُكم بعامين قد أسرني الإصرارُ والعزيمة التي تملؤ نظراتِها.. عينتُها نائبة لي بعد تميزها في عدة معارك بسحرِها القوى وعقلها الذكي لكنني.. أظنُ أنني أخاطبُها كما كنتُ أخاطب شقيقها الأكبر لأنهما يبدوانِ لي كوجهينِ لعملة واحدة يعلوهما الشبه ويجمعُهما الإصرار.. أظن أنها أول مرة أُشيرُ لآزورش بالضميرِ "هي"..

ـــفهمت..

همستُ ثم وجهتُ سؤالًا تقتُ لمعرفة جوابِه بشدة:

ـــكيف أنقذتني وقد كُنتُ أحتضِر؟

فصمت لوثيار وضاقت عيناهُ اللتانِ تحملانِ لون السماء بهمٍ كبيرٍ قد حمله ثم أجابني بهدوءٍ لم يخفى عليَّ الأسى خلفه:

ـــجدُ ملكنا الحالي كانَ يُدعى "ماكسمليان فارين" الملِكُ المعروفُ بوسامته وبغبائه المُفرط كذلك لدرجة أنه ظلَّ أقرب ما يكون لوصمة العار التي سُجِلت في تاريخِ الأسرة الحاكمة..

صمت فأكملتُ القصة التي كنتُ على إطلاع جيد بالتاريخ لأعرفها:

ـــولذلك فقد تصرف وزيرُ اليسار ووزيرُ اليمين عاقِدينِ اجتماعًا مع كبار نبلاء البلادِ وفرسانها الملكيين وبقرارٍ أيده الكُل وحتى يُمنع الدمار الشامل للبلاد الذي كنا منجذبين نحوه فقد تقرر عزلُ الملك عن منصبِه وتعيينُ ولي العهد الذي كان يبلغُ فقط أربعة عشر

عامًا من عمره ويحمل عقلًا وحيلة وحكمة لفتت الكُل على الفور ليصبِح بذلك أوَّل ملكٍ يُرفع على العرش قسرًا على والده وهو حي!

ــ ولما كُنت تعرِفُ هذه القصة يا إيفان فلن تفوتك حقيقة أن الملك ماكسمليان لم يكن مخلصًا للملكة وقد أنجب من امرأة أخرى طفلة غير شرعية ولطالما أراد الاعتراف بها حتى تستطيع أن تنشأ نشأة ملكية لكن قرار عزله قد جاء مُفاجئًا له وقد سقط قبل أن يُخرج طفلته للعلن ولما رفض ابنه الاعتراف بأخته فقد حرص الأب رغم وصفه بالغبي على تهريب الصغيرة وأمها والصرف عليهما بذكاء لتتمكنا من العيش في مكانٍ بعيدٍ جدًا وينقِذ حياتهما وتحديدًا في مدينة "النحاس" حيثُ كبرت الطفلة وأينعت ثم تزوجت من شابٍ ميسور الحال ينتمي لأسرة عُرفت بالفرسان الأشداء.. ولو كانت تلك الطفلة فتى لكان قد قُتل فورًا حتى لا ينافس على العرش حينها..

ــ تلك الفتاة..

همستُ فأجاب همسي بتتمة حديثه:

ــ تلك الفتاة هي جدة النائب ياسِن آزورش..

ــ أي أن ياسن قريبة الملك ولها حقٌ في خلافة العرش!

فهز الأخير كتفيه دلالة على عدم جدوى ذلك وقال:

ــ نعم حتى أنها تمتلك السحر الوراثي للعائلة الحاكمة والذي لا يظهر عند كل أطفالِ العائلة النقيين حتى! لكن لأنه لم يتم الاعتراف بجدتها سابقًا فسيكون من الصعب عليها شق طريقها نحو العرش إلاّ أنه ليس مُستحيلًا إن هي أرادت..

ــ وهي لا تريد؟

ــ بحسبِ علمي.

وقفتُ برهة أتأمل تلك الشخصية الغريبة التي قد يتحلى بها شخصٌ يُخبر أنه يحق له خلافة العرش فلا يخطو لأجلِ ذلك!

_أهي تمتلِكُ حقًا سحر العائلة الحاكمة؟ المدعو سحر الدم؟

_نعم..

قالها لوثيار مؤكدًا وتعابير وجهه تقسو أكثر فأكثر، إن امتلكت الفتاة سحر الدم النادر ذاك فلن يصعُبَ عليَّ تصديق أنها أنقذتني بتلك البراعة..

_سحر الدم النوراني نادر للغاية وهو ثاني أندرِ سحرٍ بعد سحر الدم الظلامِي الذي ظهر مرة واحدة فقط في الأسرة المالكة منذ دمج الممالك على يد "زاهار الموحد" مستخدم سحر الدماء الظلامِي الأول والأخير.. ذريته التي تطهرت وتوارثت فيما قل سحر الدماءِ النوراني القوى قد امتازوا بميزاتٍ جميلة وقوية.. وخطرة كذلك..

فأكملت بدلًا عن الفارِس المَلَكي وقلت:

_أساسًا فإن سحر الدماءِ قادرٌ على تشكيل أسلحة فتاكة من دم مستخدمه لكنه يستطيع كذلك تطهير الشخص من الأمراضِ عن طريق دمه فالمستخدم للسحر يجعل دماءه الخاصة تختلِطُ مع دماء المُصاب وتجري في عروقه وبهذا تُطرد الدماء الملوثة ويتماثلُ كل نسيجٍ تالفٍ للشفاء السريع بفضل سمة التجدد التي تتمتع بها دماءُ مستخدمي هذا النوعِ من السحر.. لكن إذا كانوا ضعافًا أو كانوا يحاولون شفاءَ جروحٍ مُستعصية فستسوءُ حالتُهم كثيرًا وقد يتسبب السحر في نقل الإصابة التي يعالجونها إليهم ببطءٍ ورويدًا رويدا..

_أتعني أن النائبة ياسِن..

همستُ بخوفٍ ملأ صوتي فقال لي قائدي ما كُنت أخشاه بحق:

_نعم قدمت ولحقتني إلى مُعسكر العدو مخالفة أوامري لقلقها علي وعندما رأت ما حدث تسللنا تحت ستار سحري خارج المُعسكر وعالجتك من الإصابة الأولى بدون مشاكلٍ تقريبًا سوى فقدانِها لدمها الذي جعل رأسها يعصف ويدور لكنها عزمت على علاجك من إصابة رئتك وصدرك التي كانت ستقتلك لا محالة.. في غضونِ اسبوعٍ من جلبكما إلى المستشفى

كانت اصابتُك قد انتقلت إليها كُليًا وكنت أنت قد شُفيت تمامًا.. الأطباء الذين يعتنون بها قد بذلوا قصار جهدهم لإسعافِ كل عرضٍ كان يظهر ليؤذيها في كل مرة حتى أعجزتهم الإصابة الداخلية للرئة، هناك حاولوا بجهدٍ مقدرٍ حتى تمكنوا من جعل حالتِها مُستقرة قبل بضعة أيامٍ فقط من الآن وآزورش منذ فتح عينيه وهو يكرر على مسامعي أنه سيرافقُني في معركتي القادمة بدون وجود أدنى نية منه لتركِ الجيش.. على الرغم من أنه ما عاد يستشعِرُ طاقة سحره كما لو أنه قد أُستُنزِف حتى تلاشى..

ـــوهل يتلاشى السحر!

تعجبتُ فأكمل لوثيار وهو يطرق باب الغرفة التي تقيم بها الفتاة

ـــسحر الدماء يُعتبر استثناءً.. هو شيءٌ غامضٌ لا أحد يفقه عنه الكثير يا إيفان..

الفصلُ الثامِن

فوضى في المملكة!

كنتُ أجلس رفقة لوين بينما أسدل الليلُ ستاره على رينيلي فأضحت هادئة كأن لم تكن بالنهارِ مزعجة مكتظة، وقد أمعنتُ النظر في كتابٍ عن الاستراتيجياتِ الحربية وأنا منهمكٌ للغاية ولربما أن سبب غوصي في الكتابِ ما كان إلَّا محاولة فاشلة مني للهَربِ مِن المنظرِ الفظيعِ الذي تسبب به لوين في أقصى أركانِ الغرفة، وعندها تحدث لوين الذي أبا إلَّا أن يثير غيظي بقوله:

ـــتعالَ جرب أيها الفارس أم أن المنظرَ قاسٍ عليك؟

سخر مني فرميتُ كتابي على الأريكة وأنا أنتفضُ قائلًا وقد انعقد حاجبي:

ـــلستُ مرتاحًا فلم لا تذهبُ بمشروعِك البحثِي هذا وتتركني وشأنِي لأقرأ فهذه غرفة القراءة في حالِ لم تكن تعلم!

ـــوأنا أنفذ مشاريعي البحثية في غرفة القراءة حتى يسهُل عليَّ تدوينُ ملاحظتي!

ـــولكن مشاريعك ذاتُ رائحة نتنة!

ـــفعلًا؟

سألني كما لو أنه لم يكن يعلم وقد زمَّ شفتيه بضيق وهو يَلتقِطُ فوطة من على الطاولة ليمسَح بِها الدماء التي تناثرت على شعرِه الأشقر وهو يرمقني بنظراتٍ جعلتني أقشعِر لوهلة، هل يبدو الأطباءُ مجانين دائمًا؟ أم أن أولئك الذين يشرِحون الجثث ليلًا في منازلهم هم فقط المجانِين؟ حتى بالنسبة لشخصٍ رأى الموت في الحروب بنفسه فإن منظر لوين اليومَ بدى مُخيفًا ومُرعبًا بشكلٍ يصعب تجاهُله وقد زاد شعوري هذا عندما هبت رياحٌ قوية باردة لتجعل النافذة المفتوحة تصفعُ الجدار بقوة شديدة تزامنًا مع برقٍ أضاء الغرفة ورعدٍ دوى كمدفعياتِ الحروب، وقد قام لوين الذي رمى المنشفة المعبأة بالدم أرضًا واقفًا وسار نحوي حاملًا تعابيرًا جامدة للغاية، لم يبتسم، لم يغضب ولم يكن إلا كجثة خرجت

توًا من المشرحة المُتجمدة وقد تلكأتُ وأنا أتحدثُ غير قادرٍ حتى على فصلِ الكلِماتِ عن بعضها البعض بوضوح:

ـــل.. لوين؟ ماذا دهاك؟ أسلبت الجثة التي تُشرحها دماغك أم ماذا!

لكن الأخير الذي لم يجبني ببنتِ شفة ولمع مشرطه رافِعًا إياهُ باتجاهي مع ضوء البرق الفضي، وعندها اعتلاني رعبٌ لم أستطع التحكم في تعابير وجهي معه حتى وتزامُنًا مع ذلك.. في تلك اللحظة التي اختفت فيها أنفاسِي وأنا أترقب الشعورَ الحارق الذي سيرافق اختراق المشرط الحاد لجسدي.. ضحك لوين مستمتِعًا وهو يقول بصوتٍ عالٍ مزعجٍ للغاية:

ـــكان يجبُ أن ترى وجهك أيها الفارس!

ـــأيها المُستفِز!

صِحتُ عاليًا وأنا أفقد آخر ما بقى لي من خيوط هدوئي فقد تخطى مزاحُ هذا الرجل كل حدوده

ـــألا يمكنُك أنت تكون جديًا ولو لمرة واحدة؟ حقًا يا لوين!

ـــكلا!

صاح وهو يضحكُ كطفلٍ صغير وليس كبالغٍ في الثالثة والعشرين من عمره، أُقدر حقًا أنني في عِز قلقي وتعبي أعود مساءً من دورياتنا العسكرية حول المدينة لأجِد لوين بانتظاري.. إن وجود صديقٍ جيدٍ وغريبِ أطوار في النهاية ليس بالأمر السيء ولربما لولا هذه الضحكات المتفرقة التي أضحكها بين الفينة والأخرى بصدق لما استطعتُ تحمل ما يحدثُ مع هارولد.. صديقي الذي لم يتواصل معي منذ آخر معركة خضناها قبل شهرين.. شهرٌ ظللتُ فيه نائمًا في غيبوبتي وشهرٌ آخر نظمت فيه حياتي مجددًا وواظبتُ على حضور جل دورياتنا حول المدينة وحول مدنٍ مجاورة، وطيلة هذه الفترة لم يرد هارولد كاستل على أي خطابٍ أرسلتُه إلى مقر إقامة عائلته في المدينة العسكرية، لم أكن أعرِفُ أي نوعٍ من الأشخاصِ هو الدوق فوكالت والد هارولد وقد تمنيتُ ألا يكون شخصًا سيئًا كما تقول

إشاعاتٌ عديدة لكن.. حتى إن كان كذلك وحتى لو كانت المعلومات المُقدمة من لوثيار والتي تخبرني بأن هارولد كان قد خرج من حالة الخطر عندما سُلِّمَ إلى أسرته فإنني بحلولِ نهاية الشهر إن لم يرد الأخيرُ على أي خطابٍ أرسِلُه إليه فسيجدني أمام باب منزلِه وليستل والِده سيفه في وجهي إذا أراد منعي من رؤية صديقي!

طرقاتٌ متكررة تردد صداها في أرجاء المنزلِ خافتة خلف صوتِ أمطارِ أكتوبر الشديدة، ملفوحًا ببردها كانَ الطارِقُ يكافحُ حتى لا يرتجف عندما فتحتُ الباب ونظرتُ إليه من بينِ صيحاتِ لوين المزعجة التي بالكادِ أفلتتُ منها وهو يحثني على استقبالِ الزائر في غرفة الطعام أي أبعَدِ غرفة عن التشريحِ المنفر الذي يجريه هذا الطبيب الغريب..

ـــمساءُ الخير.

تحدث الزائِرُ من خلفِ معطفٍ أزرقٍ وقبعة سوداء أخفت ملامحه بإتقان لكن صوته الهادئ وخصلاتِه الصهباءِ كشفت عن هوية صاحِبها بوضوحٍ شديد

ـــالفارِسُ الملكي ألفرين!

مُتعجبًا استقمتُ مؤديًا تحية الجيش المعروفة إلَّا أنّ لوثيار الذي ضرب صدري بخفة بقبضته قد رفع قبعته بخفة جعلتني أرى ملامِحهُ التي تقولُ بهدوء

"لا داعي للرسميات"

ـــرفيقا قتالٍ على كلِ حال..

همس لوثيار وهو يتقدمُ ليدخل بعد أن تنحيتُ عن الطريق داعيًا إياهُ للمنزل ومن خلفِ ظل معطفِه الحالِك أطلَّ خيالُ شخصٍ واقفٍ بثباتٍ تحت المطر المُنهمِر بلا ذرة تململ حتى التفت لوثيار وصاح قبل أن يُكمل طريقه

ـــآزورش! ما بِك؟ فالتدخل وإلّا ستصابُ بالمرض.

فتقدم الواقفُ بصمت ولما أصبح تحت سقفنا خلع قبعته الرمادية المبتلة وعلقها رفقة المعطفِ الذي حمل نفس اللونِ على الحمّالة المعدنية، وقد تفاجأتُ لما التقت أعيُننا أنَّ هذه الفتاة آزورش الواقفة أمامي هي نفسُ الشخصِ الذي التقيتُه في المستشفى قبل شهر..

عيناها الخضراوانِ كانتا أكثر اتساعًا وحيوية من ذي قبل وشعرُها البُني الغامقُ المُجعد قد انساب حتى وصل إلى كتفيها بفوضوية لم تناسِب الحرص الذي كانت تلفه به عندما التقيتُها سابِقًا.. هل استعجلت المجيء أم أنها فضلت التغيير؟ أم أنني أضحيتُ أهتمُ بأمورٍ تافهة لا يجدرُ بجندي مشغولٍ مثلي أن يلتفِت إليها! حتى إنني لما سمعتُ صوت ياسِن آزورش تتنحنحُ بحرجٍ كمن يطلبُ مني الابتعاد عن طريقها لتدلف إلى الداخل خلف قائدها بدل أن أنصاعَ بنظامٍ مطلق خطوت للوراء بإهمالٍ مطلق مصطدِمًا بحمالة الملابس التي سقطت فوق رأسي جاعلة إياي استقبلُ الأرض وسط دماءٍ قليلة كانت كفيلة بجعلي أتألمُ من الجرح الذي أسالها وأموتُ ألف مرة بسببِ غباءٍ لم أعهدهُ من نفسي سابقًا..

__هل انت بخير؟ سيد إدوين؟!

صاحت بي لأُحافظ على ما تبقى من وعيي فنهضتُ وأنا أترنحُ مخبرًا إياها أني بخيرٍ بينما لم أكن كذلك مُطلقًا.. لم أكن كذلك البتة!

بينما وضع لوين الضمادة البيضاء على جبيني وسط تركيزٍ شديدٍ مِنه ومن لوثيار وياسن وددت لو أن بإمكاني إخفاء رأسي بين كفي فورًا ولوين الذي كان يستحيلُ عليه اغلاقُ فمه في مثل هذه اللحظة قد زاد احراجي بقوله ساخرًا:

__يجبُ أن تتعلم المشي أيها الفارِس!

__لنذهب إلى الحضانة إذًا!

أجابه لوثيار الذي اندمج معه جيدًا فيما يبدو ليُشكلا ثنائيًا استفزازيًا ممتازًا وقد رغبا بكلِ حماسٍ مواصلة فن السخرية الذي أعتقد أنهما قد أتقناه كثيرًا سويًا حينما كنت في المستشفى

مفارقًا وعيي، لوين كان أحيانًا يهتم بي ولوثيار كان أحيانًا يزورني لذا فإنني اعتقد أنهما خلال هذه الأحيانِ القليلة قد أصبحا صديقين وهذا ما بدت عليه علاقتهما اليوم لي.

ـــأيها الفارس الملكي أنسيت سبب مجيئِنا إلى هُنا؟!

قالت ذات الشعرُ البني بنبرة مستفسِرة فخمنت أنها لربما ذاقت ذرعًا من الجلوس هنا بلا فائدة وكذلك أجابها قائدها بهدوء:

ـــأتذكر بالطبع! فلنتعجل على كل حال..

بتر جملته ثم نظر نحوي، خفت صوت المطر الذي يضربُ النافِذة وغدا الهواءُ من حولي أكثر ثقلًا وأنا أسمع الأصهب يقول لي:

ـــإيفان إدوين وصلك أمرُ استدعاءٍ من الملك لتشرف حفلة المساءِ التي ستُقام اليوم بمناسبة عيد ميلاد ولي العهد، يود جلالته تتويج جهودِ الجندي الشُجاعِ الذي قتل بنفسِه ساحرًا ظلاميًا ظل مطلوبًا للعدالة منذ سنواتٍ ويريدُك أن تقبل منه تشريف مملكتنا بِك وترقيتك لرتبة نائب فارِسٍ ملكي.. وأنا هو ذلك الفارس الملكي الذي يريدُ منك دعمه والعمل معه يا إدوين.. أتقبل وتأتي برفقتي؟ أتريد العمل معي ومع آزورش أم تفضِلُ منح هذا الامتياز لفارِسٍ ملكي غيري؟

في تلك اللحظة وردًا على كلماتِ لوثيار استقمتُ واقفًا وأنا أضربُ الأرضية الخشبية بقدمي وأرفع يدي لتقابل جبيني بينما يُمناي على قلبي.. كانت إجابتي صريحة وواضحة أنْ نَعم.

استطيعُ أن أصف علاقتي بلوثيار منذ التقيتُه في المعركة قبل شهرين وحتى الآن بقولي أنها علاقة تنمو سريعًا، فذلك الفارس الملكي المعجزة كما يُلقب قد بدى لي في كل لقاءٍ يجمعني به شخصًا واثقًا من نفسه ومتواضعًا في آن، وساخرًا ومرحًا في آنٍ نادرٍ آخر، لكنه دائمًا هادئٌ رزينٌ وقوي يستحقُ الاحترام، عندما زارني في المستشفى وذهبنا لرؤية ياسن المصابة، عندما كنت أتدربُ صدفة في إحدى ساحات القتال في مقر الفرقة العسكرية،

وحتى عندما زارني اليوم.. في كل تلك المراتِ التي رأيته فيها كان يتصرفُ معي كما لو أنني شخصٌ يأمن جانبه تمامًا.. وكأنني صديقٌ له! واليوم يطلب مني أن أكون نائبه!

مجنون.. هذا جل ما يمكنني قوله حسنًا؟!

"لكلِ فارسٍ ملكي نائبان اثنانِ"

فكرتُ بينما تهتزُ العربة التي استأجرناها وهي تعدو فوق تضاريسِ الطريق..

"لكن للوثيار نائبة وحيدة هي آزورش، ترى هل مات النائبُ الآخر في وقتٍ ما؟"

"لا يفترضُ بي أن أفكر كثيرًا في أمرٍ لا يخصني فعلى كل حالٍ سأقابِلُ الملك لأول مرة ورأسي مضمدٌ بضمادة نتيجة تهوري، يا لي مِن جندي متأهب كان مُستعدًا ليتلقى التكريم!"

_سنصلُ قريبًا يا إدوين.

قالها لي لوثيار مُقاطعًا أفكاري وهو يلمع بمنديلٍ ذهبي نصل سيفه الذي استقر على ركبتيه ويواصل:

_تعلم جيدًا كم أن رتبة نائب الفارس الملكي رتبة عظيمة، فهي الثالثة من حيث الشرف بعد" الفارس الملكي" و" قائد الفرسان العام" وهي رتبة ستخولُ لك اللقاء بالملك كثيرًا في المستقبل.. لذا فلتحذر مِن ذلك الأصفر اللامِع ولا تتفوه بالكثير..

كان لوثيار وهو يتفوه بذلك الحديث منهمكًا فيما يفعل ولم استطع رؤية عينيه لتبين شيءٍ من ملامِحه حينئذ، لكِنَّ كل ما فهمتُه كان أنه حذرني وحرص على ذلك لا لشيءٍ إلا للإبقاء على عنقي في محله.. تاجُ الملك الأصفر اللامع هو أيضًا تاجٌ مغطى بدماءِ الأبرياءِ حسب نزوات الملك ولذا.. وجب ألّا أكون أنا أحدهم..

لم أر عقب دخولنا القصر الملكي الداخلي لوثيار أو نائبته في الأرجاء، إذ أخذني خادِمٌ إلى غرفة انتظارٍ بقيتُ أتأمل جدرانها لمدة طويلة نسبيًا قبل أن يأتي أيُّ كائنٍ حي.. جدرانٌ طليت بالأبيض وزُخرِفت بالذهب اللامِع بمهارة.. سجادٌ فخم بدى وكأنه من أعمالِ مملكة أقاصي الشمالِ التي يفخرون بها.. أرائكُ ناعمة حاربتُ كي لا أغفو ناعسًا وأنا أتكئ عليها.. وجوٌ خانِقٌ حذرٌ ومُتوتِر.. هذا كان القصر الملكي باختصار..

_أيها السيد، بُعثتُ لأعطيك هذا المعطف وأطلب مِنك مرافقتي..

قال الخادمُ الشاب حاد العينينِ لذي دلف عبر البابِ بهدوء وهو يَحمِلُ بين كفيه صينية وضِع عليها قماشٌ مهندمٌ مطوي برفق، هذا القماش كان سترة خاصة بالجيش خضراء قاتمة ككل ملابسِنا المعتادة إلّا أنه كان قد حَمل شارة "الهلالِ والسيف" الفضية المعلقة بإحكامٍ مُلفِت، وهذه الشارة بالذات كانت رمز رتبة "النائب".. تلك الرتبة التي سأحصلُ عليها الآن..

وأنا أسير خلف الخادم الصارم في ممراتِ القصر الكبيرة وسترتي الجديدة معلقة على كتفي باعثة بالدفء فكرتُ بعائلتي، بشكلٍ طبيعي هم من أغنى سكانِ العاصمة ومن أعرقِ عائلاتِ البلاد.. صحيحٌ أنَّهُم ليسوا فرسانًا ولا قادة حروب لكنهم تجارٌ اشتروا مكانتهم بالقرشِ الذي لا يستطيعُ أحدٌ تجاهُله مما جعلني أتوقع أنَّ والدي على الأقل سيكون حاضرًا في عيد مِيلادِ ولي العهد "إميلير فارين" الذي بلغ الثالثة من عمره توًا، وسيكونُ والدي على علمٍ كذلك بأنني سأكون ضمن بضعة فرسانٍ سيتِمُ ترقيتهم عقب الحفل، خاصة بعد أن أُخبِرتُ أنَّ نبأ ترقيتي قد أُرسل في برقية إلى منزل والدي لظنِ المسؤولين أنني أُقيم هناك ولذا لم أعلم بأي شيءٍ إلّا بعد مجيء لوثيار إليّ.. ولكن بَعد كُل هذا لا استطيعُ التكهُن بالحالة التي سيكونُ والدي عليها، أسيفخرُ بي كما أردتُ دائمًا.. أم سيزيدُ احتقارُه لي؟

قاعة الحفل التي طغى عليها اللونُ الأحمر القوي والأبيضُ الهادئ كانت كبيرة للغاية، وبالنسبة لشخصٍ يزورُ القصر الملكي لأول مرة مثلي فقد بدى الأمرُ مُبهرًا كثيرًا! الضيوفُ كانوا يجلسون على جانبي القاعة حول طاولاتٍ عشاء بيضاء تاركين طريقًا مفروشًا بالسجاد الأحمر في المنتصف، عند نهايته كانت تجلسُ العائلة الحاكمة بهيبة.. انحنيتُ فورًا مُتمتمًا بالتحية وركبتي على الأرضِ قبل حتى أن ألمَح وجوههم ثم في وسطِ هدوءِ القاعة الذي حلَّ لحظة دخولي عَبَر صوتُ الملكِ الجهوري العالي الهواء ليصل إليَّ قائِلًا:

_ارفع رأسك أيُها الجُندِي الشُجاع..

_حسنًا جلالتك..

همستُ وأنا استقيمُ بوقفتي رافعًا رأسي لأُلقى نظرة أولى على العائلة المالكة عن قرب..

مَلِكٌ يجلسُ ملء كُرسيه بهيبة مطلقة وعلى ثغرِه ابتسامة مُحايدة، لا هي مُرحِبة ولا هي مُنفرة.. شعره كانَ أسود فاحمًا كشعري تمامًا لكنه أسدلهُ في جديلة طويلة على كتفه، أما عيناهُ الرماديتان الشاحبتان فقد عكستا ضجرًا غريبًا وروحًا مخيفة خلفهما.. كان هذا هو الملك "رون فارين" ملك مملكة كوتسيريا بأسرِها..

على يمينه جلست الملكة "لِينيا فارين" التي ارتدت فستانًا أزرق باهتًا كسماء الصيف ليعكس لون شعرها الكستنائي المرفوع برفق، لكن شيئًا ما في نظراتها الزائغة عكس حزنًا عميقًا للغاية كما لو أنها غاصت في أبعادٍ أخرى بعيدة كُل البعدِ عنَّا وكلما حدقتُ في تلك المرأة أكثر غمرني بؤسٌ كما لو أنها تبعثُ بحزنٍ مُعدي مما جعلني أعزفُ عن النظرِ إليها مُطلقًا موجهًا بصري نحو ذلك الطفل الذي يعبثُ بقدميه ويحركهما للأعلى والأسفل بكل مرح، كان طفلًا باسمًا في الثالثة من عمره ذو شعرٍ أسودٍ وعينين رماديتينِ وسيعتين، بدى بريئًا كما يجدرُ بطفلٍ حقًا أن يكون.. كان هذا هو الأمير الوحيد لمملكتِنا.. وليُّ العهدِ إميلير فارين.

تخيرتُ طاولة منعزلة، فارغة وهادئة لأستطيع الجلوس هناك وحيدًا منتظرًا لحظة انتهاء هذا الحفل الممل، في العادة فإنني استمتِع بحضورِ الاحتفالات المتفرقة التي كان الشبابُ ينظِمونها في الأكاديمية ولطالما تهورتُ في معظمها وسهرنا حتى شروقِ الشمس صاخبينَ

ضاحكين، لكن هذا النوع من الحفلاتِ المملة ذاتِ الموسيقى الهادئة القديمة لا يروقني، تساءلتُ كذلك حينها أسيحظى ولي العهد بفرصة قط ليقيم حفل عيدِ ميلادٍ حقيقيًا ويستمتِع به؟

اقتربَ حينها من المنصة الرئيسية رجلٌ فضي الشعرِ يرتدي معطفًا بنيًا أنيقًا ويضعُ فوق كتفيه وشاحًا أحمر تناسب مع لونِ عينيه المُتقد، وقد بدى مع طول قامته وعضلاتِه المفتولة وذاك السيفِ الذي يحملُه على خصره مُقاتِلًا شرسًا بحق، ولما رأيتُ شارة "السيفينِ المتعاكسينِ" التي يعلقها على معطفه فقد تأكدتُ من هويتِه دون عناء.. كانت هذه شارة الفرسانِ الملكيين.. بينما يوجدُ خمسة فرسانٍ ملكيين فقط يقيمون في العاصمة فإن أقربهم للملكِ والذي يتولى منصب "حارسٍ شخصي" له هو الفارِسُ الملكي "إرنست لازمير" ولا بُد أنه هو ذا الذي يقفُ أمامي الآن!

ــأيها الفُرسانُ الشجعان، أيها السادةُ الكرام الذين تجمعوا هُنا اليوم لتهنِئة أميرنا وولي عهد مملكتنا الصغير بمناسبة بلوغه سِنَّ الثالثة، والذين حضروا ليشهدوا ــبعد انقضاءِ معركتنا الكبيرة في قوى آدور الحدودية ضد جيشِ "قُطاع الطرق والمحكومِين" التي قادها الفارِسُ الملكي المعجزة لوثيار ألفرينــ على بروزِ بضعة شجعانٍ وددنا بموجب إنجازاتهم منحهم رتبًا عسكرية أمام ملكنا العظيم، ليخدموا الوطن ولنضعَ قوتهم الواعدة في موضعها الصحيح..

ومضى إرنست يكثر في الحديث والمقدمات الطويلة التي كان جليًا أنه حتى هو قد تضايق من اضطراره لإلقائها، عقبها وفي وسط بقايا التصفيقِ الحارِ الذي كانت تضجُ بِه القاعة لأجلِ فارسٍ كُرِّمَ أمامي قبل دقيقة فقد ذُكِر اسمي مخبرين إياي أنني يجِبُ الآن أن أمثل بين يدي الملك وحارِسه..

قال لي إرنست وأنا أجلس أمامه وركبتي على الأرض كما يجدر بجندي أن يفعل:

ــإيفان فانير إدوين، جنديٌ من مملكتنا الحبيبة ابنٌ من أسرة إدوين الشمالية المنحدرة من المدينة التجارية والتي ما قدمت إلى عاصِمتِنا إلاّ لتمُدَّنا بالأبناءِ الشجعانِ الذين نفخرُ بهم.. أيها السيداتُ والسادة إن هذا الجندي الشاب حديث التخرُج قد ذهب في معركته

الأولى وساند ببسالة فارسه الملكي القائد لوثيار ألفرين، وقد تمكن بقوته المحضة الخالية من أي نوعٍ من السحر من قتلِ ساحرٍ ظلامي عاتي ظلَّ وجودُه يؤرق هدوء مملكتنا لسنوات، وهي مهمة لن ينال عليها هذا الجندي اليوم رتبة أقل من رتبة نائب فارسٍ ملكي.. فالترفع رأسك أيها الفارس إيفان إدوين..

تقنيًا كانَ من العجيبِ أنني صعدتُ من القاعِ إلى القمة في هذه المدة القصيرة.. من أدنى رتبة في الجيش "كجندي" إلى ثالث أعلى رتبة "كنائب فارسٍ ملكي" مُتجاوزًا بذلك رتبًا "كالفارس" و"قائد جنود" و"قائد كتيبة"! لقد تجاوزتُ ما يقربُ العشر رتب أو أكثر ولا يسعُني ألا أصف نفسي بالتهورِ لقربي من الموتِ في تلك المعركة ولا ألا أصفَ نفسي بالأنانية لإيذاءِ النائبة ياسن التي أخذت جزءً من جراحي بدلًا عني لكن كل ذلك ليس لشيءٍ إلا لإثباتِ نفسي أمام والدي، النجاح يثبتُ أني أستطيع..

أخذتُ السيفَ الذي قُدِّم لي قائلًا لنفسي أنني سأعتزُ به، ورددتُ بابتسامة مُرهِقة على كُلِّ شخصٍ هنأني على ترقيتي وحينما شققتُ طريقي نحو الطاولة التي يجلسُ عليها لوثيار عقب رفعه ليده يدعوني إليه ولما كان لوثيار ككبارِ الشخصياتِ يجلسُ في الصفوف الأمامية فقد لمحتُ كذلك والدي يجلسُ في القسم المقابِل المخصص لأغنياءِ البلاد وبرفقته شقيقي آرثر، وعلى وجه أبي لما رآني نظرة مُحبة لم أر مِثلها منذ سنواتٍ لا أذكُر عددها.. هل اقتنع أخيرًا بي؟ هل آمن معي بحلمي وبأنني أنا ــالفتى الضعيفُ الذي لا يملك أي سحرٍــ قادرٌ على أن يُصبح شيئًا؟!

لوثيار وياسِن كانا مُستمتعين الليلة خارج أجواء المعاركِ والأعصاب المشدودة ولما جلستُ معهما وتبادلنا التحية أسرني مظهر ياسن التي جمعت شعرها البني المجعد بشريطة حمراء وارتدت فستانًا أبيض مُزينًا بالأسودِ الباهت ولم تكن عيناها اللتانِ أُحرِجتُ لما نظرتُ إليهما تحملان ذاك التعب الذي كان قبلًا، أبدأت صحتُها تتحسنُ رويدًا يا ترى؟ خل استعادت شيئًا من سحرها يا ترى؟ هذا جل ما أملتُه..

كانا اليوم ـــهذان الفارسانـــ يستضيفانِ آخرين على الطاولة لم ألاحظهم فورًا لتشتتي فالتفتتُ مُتسائلًا بحلولِ الوقت الذي انتبهتُ فيه على وجود تلك المرأة التي تجلسُ معها وهي تحمِلُ على قدميها طفلة صغيرة للغاية لربما لم تتجاوز حتى عامًا واحدًا لتوها وقد جلس إلى جوارِ المرأة كذلك فتى في الرابعة من عمره على الأكثر ولربما قد بدى فضولي واضحًا صارخًا مما دفع لوثيار ليقول بحرج:

ـــلم أُعرفك.. هذه زوجتي "سيسيل ألفرين" وطفلاي "أمايا ألفرين" و"ليون ألفرين"..

قالها مُشيرًا براحة يده نحو السيدة والطفلين وقد ضحكت السيدة الشابة بخفوتٍ أحسب أنه نسبة لتعابير وجهي المندهِشة للغاية، ولغبائي الذي أكره فقد ظللتُ أُتمتم وسط تبسم ياسن الذي زاد توتري

ـــك.. كيف؟ إنك في الثانية والعشرين! نحن في العمر نفسه!

ـــلم أدخل الأكاديمية أنسيت؟ لقد تزوجتُ مبكرًا..

ـــآه..

ـــوهذا..

تابع الفارِسُ الملكي لزوجته

ـــإنه إيفان إدوين كما تعلمين.

فنطقت المرأة التي لا أظنها أكبر من لوثيار بشيء وحدثتني بلطفٍ يوحي أنها لا تمت لمجالِ الجيش بصلة..

من خلالِ حديثنا اكتشفتُ أشياء عدة، أنَّ ياسن وسيسيل كانتا صديقتين مقربتين للغاية، وأن الفتى المدعو ليون والذي ورث شعر أمه البنى وعينيها الرماديتين كان مُشاغبًا للغاية وكذلك أنَّ الطفلة ذات العامِ الواحد التي سرقت لون شعر والدها الناري وعينيه السماويتين كانت جميلة للغاية لكنني كذلك لم أُفوت مطلقًا نظرة الحزن التي تسللت من

عيني لوثيار بين الفينة والأخرى ليرمُق بها طفلته أمايا.. كما لو أنه يخشى عليها من شيءٍ ما أو يأسى عليها لشيءٍ ما..

جو الاحتفال الذي تلاشى مله بعد جلوسي رفقة فريقي الجديد قد عاد ليتعكر مرة أخرى عند حلولِ الساعة الحادية عشرة مساءً، فتزامُنًا مع عقارب الساعة التي انطبقت جاءَ مبعوثٌ مهرولًا باتجاهِ جلالة الملك مُتجاهلًا الحراسة المشددة التي لم تسمح له بالدخولِ سريعًا فاضطُر على ما يبدو للتملُصِ من بين أيديهم والدخولِ إلى القاعة وهو مملوءٌ بالخوف، ولما كان هذا الرجل الذي تسبب بكل تلك الفوضى بين صفوفِ الحراس أشعثًا أغبرًا من هول ما يَحمِلُ من أخبار فقد نزل الصمتُ على كل مَن بالقاعة كأنَّما لم يمتلكوا شيئًا أهمَّ من هذا الرجل ليتبينوا أمره، أما الملك الذي كان يحمل كأس شرابه بينَ كفيه قبل لحظاتٍ فقد أضحى كوبه الزجاجي فتاتًا على الأرض بعد أن انزلق من بين كفه لدى سماعِه لمقولة الرجُل الذي صاحَ بأنفاسٍ مُتقطعة مُتجاهلًا وجود الجميع:

_"داميان هاورز" قد مات! لقد سقط!.. الملكُ داميان قُتِل على يد مواطنٍ مِن مملكتِنا!

وقد كان داميان هذا الذي استقبلنا خبر موته بأنفاسٍ متوقفة هو ملك أعدائنا.. ملكُ مملكة آيريا..

القانونُ المتعارفُ عليه كانَ أن" الاغتيالات" للجبناء وأنك إذا ما اغتلتَ عدوًا نائمًا في فراشه فأنت أجبنُ من فأرٍ هارب، وأمّا الآن ونسبة لسقوطِ ملك آيريا على يد مواطنٍ مِن كوتسيريا فهذا هو عين التلطيخِ لسمعة العائلة المالكة، اسمُ عائلة فارين المالكة قد تمرغ بالترابِ في التو واللحظة وسيبقى كذلك حتى يُسلَّم رأسُ القاتل إلى وريثِ الملك داميان، لهذه البلاد قوانينُها العديدة لكِنّ الشرف كان أعظمها على الإطلاق..

_هذا سيء..

همس لوثيار بحنقٍ فاستيقَظتُ إثر همساتِه من دوامة أفكاري وتابعت ياسن بقية كلماتِه تعلمُني بما كُنت أجهل:

_كانت هناك بضع محاولاتِ اغتيال تستهدِفُ ولي العهد منذ مدة، إذا لم يستطع الملك تسليم قاتِل داميان هاورز إلى آيريا فإنَّ "حلفِ دول الشرق" سيتدخلُ في مشاكل قارتنا الداخلية وسيتعرضُ ملكنا للمُساءلة.. قد تسقطُ العائلة المالكة أو قد يجدُ مُستهدِفُ الأميرِ المجهول الطريق سالِكًا لينفذ جرائمه.. أو قد تبدأ آيريا الغاضبة حملة إبادة جنونية للانتقام.. حتى الآن فإنَّ الحرب التي خضناها لم تكن رسمية ولم تدعمها العائلة المالكة لآيريا علنًا، بل إنهم دائمًا ما كانوا ينادون بالسلامِ جهرًا.. أما الآن فإن الحرب الحقيقية قد بدأت..

الفصلُ التاسِع

ما بعدَ مَوتِ المَلِك

مضى يومانِ مُنذُ وصولِ خبر سقوطِ الملِك داميان هاورز إلى مَسامِعنا، العاصمة رينيلي بِكُلِ ساكنيها قد غمرتها الضجة وأُسرت قلوبُ السكانِ بالخوف من ثلاثة أشياءَ بشكلٍ رئيسي..

أولُهم كانَ الحرب الشاملة التي قد تُفتَحُ علينا مِن قبل مملكة الملك الراحِل انتقامًا في حالِ لم نُسلِّم الجاني، أو كذلك في حَالِ لم يسعهُم الاكتفاء بقطعِ رأس الجاني دونًا عن أُمته..

ثانيًا، إذا لم نحُلَّ القضية بالشكل المُناسب فقد يتدخلُ حلف دولِ الشرقِ ويُسقِطُ مَلكنا وبالتالي ستنهارُ كوتسيريا..

وأخيرًا.. الشيءُ المرعب الذي يخشاهُ حتى الطفلُ الرضيع ويشيبُ له رأسه هو أن داميان هاورز كان كبير السحرة النورانيين الذين يحافظون على الحاجز من قهرِ الشياطينِ وبطشهم ونسبة لأن عدد السحرة الذين يقيمون الحاجز في آيريا قليلٌ بالأصل فإن موت ساحرٍ نوراني قوي للغاية كالملك داميان لهو بمثابة كرتٍ يُرسل البقية إلى الجحيم.. قريبًا في حال لم تطلب آيريا عونًا من مملكتنا وإمدادًا فسوف لن يتحمل سحرتهم قوة تعويذة الحاجز طويلًا، في ذلك الوقت إذا ما قررت الشياطينُ الهجوم بغتة فعندها سينتهي الحاجزُ في آيريا وستُغزى بالشياطين.. سيصلُنا الأعداءُ وتسيطر تلك المخلوقاتُ المرعبة على القارة ولربما تعبر البحر نحو دول الشرق.. سيَسوَدُّ العالمُ أجمع.. لا يسعني الآن سوى تذكُر نبوءة هارولد التي أخبرني بها ذات مرة

"مملكة الشياطين التي تُخيفُنا جميعًا ستسقُط على يد آلِ إدوين ذاتَ يوم.."

وإذا ما صدقَ حديثُه أولا يعني هذا أن مملكة الشياطين لتُدمَّر يجبُ على الحاجز الذي يفصلنا عنها أن يزال أولًا؟ يجب على مئات.. لا بل آلافِ الأبرياء أن يموتوا قبل أن يتمكنُ

آلُ إدوين حقًا من إبادة الشياطين! لذا لطالما فضلتُ ألا تتحقق هذه النبوءة على الإطلاق ودعوتُ لأجل ذلك.. دائمًا..

ـــأيها النائبُ إيفان!

صاحت بي ياسن موقظة إياي من شرودِ أفكاري ثم تذمرت وهي تقولُ لي:

ـــأنت كثيرُ الشرود!

فرفعتُ رأسي مغمغمًا باعتذار مقتضب لأن قدرتي على الحديثِ كانت قد خارت بالفعل؛ فنحنُ خلال هذين اليومين لم نذقُ طعم النومِ إلا لساعاتٍ قليلة وعملنا أنا وياسِن ولوثيار في مكتبِه الذي يقعُ في القسم الجنوبي من العاصمة ليس فقط على تنظيمِ الجيوش والدوريات ومشاكل الأمن القليلة المُعتادة بل كذلك على أعظم ما يشغل مملكتنا حاليًا.. قضيةُ قتل داميان وُكِّلت إلى لوثيار كي يحسِمها في مهمة حتى هو نفسه تذمر لما استلمها، أما الآن بينما أنا وياسِن في مكتب لوثيار ننجزُ كمًا هائلًا من الأوراق والتصريحات بدلًا عنه فإني لا استطيعُ منع شرودي من أن يتسلل إلى بين فينة وأخرى..

ـــأتساءلُ متى سيعودُ الفارس الملكي لوثيار؟

قالت ياسن التي استغربتُ تحدُثها معي في أثناء العمل اليوم على عكسِ ما ألفته من طباعها في اليومين الماضيين من عملنا سويًا فأجبتُها وأنا أنظرُ إلى هيئتها التي تُكافحُ لتُبدي مدى جديتها وملاءمتها لملابس الجيشِ وشارة السيف والهلال لكن يديها اللتانِ ظلتا تسقطانِ القلم أرضًا كُلِّ حينٍ قد أعلمتانِي أن هنالك خطبًا ما..

ـــالقائد لوثيار ذهبَ مع فارسينِ ليقابِل طفلًا ادعى أنه يملِكُ معلوماتٍ حول الذي اغتال الملك هاورز.. بحسابِ مدة الذهاب والإياب وبُعدنا عن "حي أتيوس" الذي قصده القائد فإنه سيعود بعد ساعة أو ساعتين من الآن..

انزلقت بضعُ خيباتِ أمالٍ نحو عينيها الكئيبتينِ اليوم عقب كلماتي لكنني وعلى الرغمِ من انشغالي بهمومي الخاصة وجدتُني أُبعد الأوراق على الطاولة عن أمامي وأُحدِقُ نحو خضراءِ العينينِ مُعطيًا إياها كل انتباهي وأنا أقول:

_ياسِن..

_منذُ متى نتخاطب بلا ألقاب!

لكن مقاطعتها لكلماتي لم تهمني البتة وأنا أواصلُ حديثي:

_أستطيعُ أن أرى بوضوحٍ أنكِ لستِ على ما يرامُ اليوم، إن كُنتِ مريضة أو إن ساء حالُ رئتيكِ فسأصحبك إلى أليكس وسأُكمل العمل وحيدًا.. لا تتحاملي على نفسك..

_كلا..

قالت ثم حدقت في عيني طويلًا، ذكرتني تلك العيونُ الخضراءُ فجأة بعيني هارولد الحادتين وتلك المشاعرُ التي تسللت إلى صدري في هذا الموقف لهي شيءٌ لا أفهمه أبدًا، تمامًا كما أحسستُ حينما بُتر حديث هارولد بإصابته في القتال بعد أن كان يخبرني أنها ليست أول مرة يُقاتل ويَقتُل فيها، قالها لي ببؤسٍ لم أستطع سبر أغواره حتى الآن، وأنا لا زلتُ حيًا ولا زال ذاك البؤس يسكُن قلب هارولد.. أما البؤسُ الخاص بياسِن قد بدأ يفيضُ من داخلها حتى عكر صفوها وأنا لا أريد لهذا البؤسِ أن يظهر مُجددًا ليزعج من أهتم لأمرهم دونما قدرة مني على طرده!

_لستُ مريضة..

_إذا ما بِك؟

قلتُ فأوقعت الأخيرة القلم من يدها مُجددًا وخلف شعرها المرفوعِ ولباس الجيشِ الأخضر والمظهر الحازم الذي يغلفها ارتجفت كالطفلة وهي تقولُ بانفعالٍ غريب:

_لا شأن لك!

صدمتني كلماتُها التي لم تتناسب عواطفها مع موقِفنا فعلمتُ من خلالها قدرَ اضطرابِ هذه الفتاة الآن وهمستُ:

_لا بأس إن لم أكن شخصًا مُناسبًا لتخبريه بما يجعلكِ مضطربة فأنا في النهاية مجردُ زميلٍ حديث عهدٍ بالعملِ مَعك، زميلٌ ممتنُ لإنقاذكِ لحياتِه.. لكِنَّ هذا الزميل عينه قد أُذى شخصٌ عزيزٌ عليه ذات مرة بينما كان يحاول أن يخبره بآلامِه وقد فارقه.. دونما قدرة منه على إزالة ذلك الألم..

_كلا..

همست لي بينما تشد قبضتها وترمقُ الشمس المتجهة نحو خط الأفق بحزن.

_مُشاركة الهمومِ ضعفٌ يا إدوين..

_مَن الذي قال ذلك!

انفعلتُ غير مُدركٍ لنفسي وأنا أقف من فرط غضبي، حينها كُنت قد أدركت معنى أن تولد في أسرة من الفُرسان وتكون الوريث الوحيد، في البداية حسدت ياسن على هذه النعمة كوني في وضعٍ معاكسٍ مع أسرة تكره الجيش وترفضه، لكن ياسن التي خسرت شقيقها وظلت وحيدة كوريثة لعائلة آزورش لا بد من أنها أُجبرت على الالتحاق بالجيش كيلا يضيع فخر أجيالٍ من فرسان عائلتها، على الرغم من كونها فتاة.. على الرغم من أن الجيش يكاد يعتبر جحيمًا.. هي واصلت.. مضت ولم تخيب ظن والدها، كل ذلك جعلها مستقلة معتمدة على ذاتها حتى فيما يتعلقُ بهمومها، فلا استغربُ أنها قد تعلمت أن البوحَ بما يُحزِنُك يضعِفُك.. إنني لستُ غاضِبًا مِنها وإنما غاضبٌ لأجلِها!

_حينما كُنت صغيرًا..

تحدثتُ وأنا أجلس بهدوء في مقعدي مواصلًا:

ـــضربني والدي ذات مرة في مخزنِ المنزل بعيدًا عن مسامِع إخوتي لأنني رفضتُ امتحان المساقِ التجاري وأردت دخول الثانوية ومن بعدها أكاديمية لايون العسكرية، رغبتي تلك كانت خطأً استحق العقاب مِن وجهة نظر والدي لكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لأخي الأكبر.. أليكس أُجبِر على أن يُصبحَ طبيبًا وفي النهاية أحب هذه المهنة الإنسانية بمرور السنين لكنه مرة أخبرني بجملة جعلتني ثائرًا حتى اللحظة.. كلماتُه تلك دون قصدٍ منه قد جعلتني أندفع نحو حلمي كما لو أنني سأموت إذا لم أنله.. لقد قال:

الحزنُ كثيرًا ما يغلف قلب المرء حتى يحول دون شعوره بشيء، مهما صرخنا قائلين أن حياتنا بدونِ أحلامٍ لا تُساوي شيئًا فإن كل ما أستطيع أن أراه صحيحًا هو أن حياتنا بدونِ مَن نُحب لا تساوي شيئًا، حتى لو لم نمتلك إلا ذاتنا فعلينا أن نُحبها، نرأف بها لأنها بالتأكيد هي الوحيدة التي تحملت كل ذلك الألم طوال تلك السنين.. الحزنُ الذي يغلف قلبك سيحميك كثيرًا.. وأهمُ شيءٍ هو ألا تستكين..

ـــأسيموتُ لوثيار؟

قالت ياسِن بيأس، ببساطة، بهدوءٍ وبلا ألقابٍ أو نفاق.. كانت من أعماق قلبها قلقة فقط على لوثيار لهذه الدرجة التي منعتها حتى من العمل، وعندها عادت لتوضح لي مقصدها أكثر:

ـــحين كنا أنا وأخي صغارًا سقط الأخيرُ منذ طفولته مريضًا، كان يمرضُ بشدة حتى بات كلما كبرنا وتقدمنا بالعمر يسعل دمًا ويلازِمُ فراشه لأيام.. علمنا بعد بذل الجهد والمال الكثير أنَّ حالته كانت بسبب سحر الدم النوراني الذي ظهر كسمة نادرة في الأسرة تميزنا بها أنا وشقيقي، لكن كلًا من دماء آزورش ودماء العائلة المالكة التي تجري في عروقه لم تنسجما، إذ لطالما بدى أخي كفارسٍ من آزورش يحمل طباعهم أكثر من كونه قريبًا بعيدًا للأسرة المالكة..

صمتت ياسن قليلًا ثم زفرت أنفاسها وهي تُكمِل:

ـــلم أكن أنا التي أجدت استعمال سحري وفرحتُ به لأتوقع أنني سأكرهه لتلك الدرجة.. كرهتُ سحري الذي عجز عن تخفيف ألم أخي وهو يبيتُ الليل صارخًا محاولًا التحكم في قوة سحره التي كانت تدمر قلبه ورئتيه ببطء، أنت ترى يا إيفان أنني قد عالجتك في المعركة وتحملتُ الأضرار لنفسي وأنا لم أفعل ذلك إلا لأنني رأيتُ خوف القائد لوثيار عليك جليًا في عينيه وحينها تذكرت أخي الذي لم أستطع مساعدته أبدًا واندفعتُ لأُساعدك..

أتعلمُ يا إدوين كم كان أخي فارسًا شجاعًا؟ في سن الثامنة عشرة رفض قرار والدي الذي رأى أن يرتاح هو لأنه مريض وأن أذهب أنا للأكاديمية العسكرية بدلًا عنه، والدتي رأت ذلك أيضًا لكنهم في النهاية لم يستطيعوا معارضة أخي الذي ظل يتظاهر أنه بخير بينما كان يقضي لياليه يئنُ ويتألم! لذا عندما بلغتُ الثامنة عشرة التحقتُ بالأكاديمية العسكرية مخالفة لرأيه.. أردتُه أن يرتاح عندما يتعب، ألا يشعر بأن كل العبء ملقى على كاهله.. أردته أن يراني قوية فيستريح ويرفع راية لنفسه وأولوية لتهدئة سحره الثائر.. لكن أتعلم ما حدث؟ لقد هدده والدي بالطرد من المنزل فقط لأنه لم يستطع أن يترقى بعد عامٍ من التخرج وقد قال له أن بقاءه طويلًا برتبة جندي يدنسُ شرف العائلة.. كان على المسكينِ أن يضاعف جهوده حتى وهو مريض، أن يحمل كل ذلك على عاتقه حتى لا يُلقى العبء عليَّ أنا.. التقى بالقائد لوثيار في معركتينِ استطاع أخي أن يتقن فيهما استخدام سحر الدم خاصته أخيرًا ويقل مرضه.. وفي المعركة الثالثة، الأولى له كنائبٍ للقائد لوثيار والأخيرة له في الحياة.. قُتِل أخي على يد مُعاوني الملك حتى لا يمثل تهديدًا على خلافة الأمير إميلير..

صمتت ياسن وعيناها لا تزالانِ معلقتين بالغروبِ المُشع من خلفِ النافِذة حتى إنني وأنا أسمع قصة ألفريد آزورش المأساوية هذه شككتُ أن ياسن سردتها للنافذة لا لي أنا، لكن الفتاة التي التفتت إليَّ بعينينِ بهما شيءٌ من بقايا دموعٍ تتلألأُ على مرأى لأول مرة همست قائلة لي:

ـــلو كنتُ وأخي مع أي شخصٍ غير الفارِس المَلكي لوثيار لكان قد استغل قوة سحرنا النادرِ لأغراضِ نفسه، لكن لوثيار دائمًا ما يُعاني بصمتٍ وحتى أنا أستطيعُ أن أفهم أن سحريه يجعلانِه يتألمُ كثيرًا.. أستطيعُ أن أرى كم يحبُ عائلته الصغيرة ويتمنى أن يظل بقربِهم.. طيلة كل المعارك التي خضتها رفقة هذا الفارس الملكي يا إدوين فإنني لم أخش عليه من الموت لأنه قويٌ ولن يموت قهرًا، لكنني اليوم أخشى عليه من أن يموت طوعًا..

ـــكيف ؟!

قلتها بصدمة فردت الأخيرة ودمعتُها تشق طريقها على وجهٍ لا يُعبر بوضوحٍ عن كم المشاعر المتصارعة بداخلها:

ـــإنَّ تسليم الملك مهمة إيجادِ القاتِل إلى القائد لوثيار بمثابة وضع حبلِ المشنقة، إن لم يجد قائدُنا القاتل فسيستخدم الملك فشله كحجة ويسلمه هو إلى آيريا ككبشِ فداء، قائدنا الآن سائرٌ نحو الموت طوعًا بدون مقاومة إذا ما فشلت مهمتنا، فإما موته هو أو موتُ عائلَتِه يا إيفان!

ـــياسِن!..

ـــنعم ؟

ـــأؤكد لكِ أن هذه المهمة.. لن تَفشَل!

العاصفةُ التي قدمت على حينِ غرة كعادة كل عواصفِ أكتوبر قد ألقت عليَّ ببرقٍ ورعدٍ وبردٍ حملتُه كله فوق رأسي بينما أنا واقفٌ أمام منزلِ والدي مُترددًا حيال طرقِ البابِ أم لا..

تذكرتُ كيف أنه قبل مغادرتي للمكتب تركتُ الفارس لوثيار بعد أن عاد من تحقيقاته التي أجراها مُتحفزًا للغاية مُتهلل الوجِه بسببِ النتائج المُرضية التي حصل عليها.. فقد كان قد حصل أخيرًا على اسمِ القاتِل وطرف خيطٍ مُرضي..

أما الآن فقد فُتح البابُ الذي وقفت أمامه ببطءٍ تزامن مع لمعانٍ يُعمي البصر للبرق ليُطل من خلفه شقيقي الأكبر مُبتهجًا لدى رؤيتي وعيناهُ العسليتانِ ضاقتا إثر ابتسامة صادقة وهو يسحبُ يدي ويقول:

_كُنا نتحدثُ عنك توًا.. جيدٌ أن آرثر ليس هو مَن نهض ليفتَح الباب!

لا أدري حقًا إذا ما كنتُ قد أجبته على كلماته أو إذا ما كنت قد أوليتُها أي قدرٍ من الاهتمام حتى؛ قدماي فور دخولي عبر عتبة هذا المنزل بدأتا ترتعِشانِ برهبة وقلبي فورَ أن حاصرته هذه الجدرانُ ظل ينبِضُ بشدة مُناديًا برغبته القاهرة في الهرب.. وصوتي الذي ودَّ أن يخرج كان قد اختنق داخل حلقي وكُتِم، كل الذكريات المؤلمة من رفضهم لحلمي وهدفي قد توالت أمام ناظري.. كلُ تلك المراتِ التي رفضوا فيها ذاتي.. عندها توقف أليكس الذي شعر باضطرابي عن خُطاه أمامي وفتح فاهُ دون حتى أن يلتفت إليَّ ليسمح لي برؤية ملامح وجهه إلاّ أنني بعد سماعِ كلماته أحسب نفسي بت قادرًا على معرفة ملامحه دون أن أراها..

_لا علم لي يا إيفان إذا ما كانَ قرارُك صحيحًا أم خاطئًا منذ البداية، لكنني كنتُ في التاسعة من عمري عندما توفيت والدتُنا وهي تُنجِبُك وقد كنتُ كذلك آخر مَن نطقت له بوصيتِها يا أخي.. أخبرتني أن أُحافِظ على هذه الأسرة بأي ثمن.. وماذا فعلتُ أنا؟ إنني الآن أراكُم تتمزقون وينهش بعضكم بعضًا بينما يغمُرني عجزي، أتعلم؟ لم يعد يهمني إذا ما كُنتَ جنديًا أم تاجرًا أم حتى حمالًا، لقد أدركتُ ذلك حينما كدت تموتُ قبل شهرين يا إيفان، أدركتُ أنك لا يجب أن تموت وفي قلبك ذلك الندب العظيم.. والدي اقتنع بما في رأسي بعد شهرين من سعيي الحثيث، أما آرثر فقد أقنعتُه بقبضتي هذه وجايد ليس هُنا اليوم لذا..

استدار أخي، ضحك كما الأيام الخوالي ولم يبدو لعيني لأول مرة منذُ عهدٍ بعيدًا كشخصٍ مُثقلٍ بالهموم وهو يقولُ لي:

_أهلًا بعودتك إلى مَنزِلك!

_أتعني أنه..

تمتمتُ بصوتٍ مُهتز مُرتجف فأومأ شقيقي ذو الشعر البُني إيجابًا وعندها فقط أدركتُ أنَّ لدي إذنًا حُرمتُ منه لمدة أربعة سنوات طوال.. أخيرًا أصبح بإمكاني رؤية والدي!

كان جالسًا في غرفة المعيشة يتبادلُ حوارًا مع آرثر، عيناه كانتا ضيقتينِ بحزم وشعره الأسود الذي خالطه بياضُ الشيب كان قد رُفع بعناية بينما بدت بشرة والدي الحنطية أكثر صحة من ذي قبل، أما نظراتُه الثابتة التي رمقني بها فور إحساسِه بحضور شخصي فقد منحتني شعورًا غريبًا للغاية، شعورٌ ذكرني بكل مرة رفض فيها والدي قراراتي وأحلامي ضاربًا بها عرض الحائط وهذا الشعور الغريبُ ظل يدفعني رغم كل شيء لأتجاهل وأتناسى كل ما فات وأركز فقط على اللحظة الحالية.. على ما أُريده وأرغب فيه الآن.. وأحسب أن هذا الشعور يُسمى الأمل!

_إيفان إدوين..

نطق بها والدي وهو يتقدمُ خطوة تلو الأخرى نحوي، مُناداتُه إياي باسمي متبوعًا باسم العائلة لهو تصرفٌ قد يعني قبول أبي بي مُجددًا، لكن ذلك القبول ظل مشوبًا بشكي وذعري الذي ظهر جليًا فور رفع والدي لكفه أمامي، لحظتها فلم أعد أنا ذلك الفارس في الجيش ولا ذلك الشاب البالغ.. عدتُ إلى شخصي الصغير وتجلت ذاتي الهشة وأنا أجفلُ مُرتعِدًا للوراء لكِنَّ أبي لم يسمح لي بالهرب هذه المرة إذ مدَّ ذراعيه وحاوطني بهما كما قد يفعلُ أيُّ أبٍ غاب عنه ابنُه طويلًا.. طويلًا جدًا

_أنا آسف..

همس أبي وواصل دونما تأمُلٍ منه لسماعِ ردي

_ظننتُ طيلة حياتي أنكم يا أبنائي إن سرتم وفق ما أُخططه لكم فستكونون بخير، رسمتُ لكم مساراتٍ تجعلُكم أغنياء ولا تُعرضُكم للخطر وقد واسيتُ نفسي كلما ردعت أحدكم عن الميلانِ قائلًا أنه الخير لكم، أنكم حتى لو تحطمتم فستجبر العيشة الرغدة كسركم.. واسيتُ

نفسي بأن أحلامكم مجردُ نزوات حتى كبرت أنت يا إيفان وعاندتني حتى اضطررتني لدفعِك بعيدًا جدًا عني، ذهبت وحيدًا بلا سِحرٍ ولا أسرة ورميت بنفسكَ في غمار المعارك تاركًا والدك الكهل ليلومَ نفسه قلقًا عليك كل حين! عندما أُصبت وكدت تموت وددتُ لو يرجع بي الزمنُ لأُكبلك بالسلاسل فقط لمنعك بحزم! لكن أتعلمُ ما جعلني أتراجع؟ أتعلم ما جعلني أُدرِكُ أنَّني كنت مخطئ طيلة حياتي؟.. لقد كان عزمك يا إيفان.. ظننت أنك بعد رؤيتك للموت ستحيد عن هدفك ولن تعود للجيش إلا أنك عُدت، وأصبحت حقًا أقوى مما كُنت بشهادة كل شخصٍ في رينيلي أيها الفارِسُ الشجاع.. إن كُنت أنت سعيدًا إذًا فلتعش حياتك القصيرة التي تتمنى كيفما تشاءُ، مهما كانت قصيرة يا بُني.

لم أستطع عقب كلماتِه إلا أن أرتجف أكثر..

ليلتها تحدثنا عن أشياء عديدة، عن وجهة نظر والدي مُفسرًا لنا السعادة بينما أخبرناهُ أنا وأليكس أن السعادة لا في الأمانِ والغنى وإنما تأتي أحيانًا متوارية خلفَ الأحلامِ والمخاطر.. آرثر الذي لطالما كان يمتلكُ غرورًا وتفوقًا لنفسه لم يمتلك اليوم إلا كدماتٍ مُزرقة على وجهه بفعل قبضةِ أليكس الذي أخبرني أنَّ تشويه وسامة آرثر التي يغتر بها كانت السبيلَ الوحيد لردعه عن استمرارِ تشويه أفكارِ والدي وتحييدِها عن الاهتداء للصواب..

ــإن كُنت غاضِبًا فاغضب على نفسك لعدمِ سعيك وراء أهدافك وأحلامك ولا تصُبن غضبك على إيفان فهو لم يفعل لك شيئًا..

هكذا قال أليكس الذي أخبرني أن رد آرثر جاء عليه بصراخٍ مُنفعلٍ وعيناه البنيتانِ تشتعلان:

ــأنا لم أمتلك حلمًا أُعانِدُ لأجله ولم يكن دافعي قويًا كدافع إيفان لأستميت لأجله.. أخبرني يا أليكس لماذا وُلِد إيفان بعدي؟ لو لم يكنُ هنا لما حُرِمنا من والدتنا! لو لم يكن هنا لظللتُ أنا المتفوق في أُسرتنا! الصغير والوسيمَ والمُتميز بالسحر القوى ومحبوبًا من قِبل والدي لكِنَّ ذلك الأبله إيفان لا يمتلِكُ سحرًا حتى! رغم ذلك امتلك تفوقًا!

وعقب كلماته وجه أليكس لكمة قوية إلى وجه آرثر ليجعله يستفيقُ من أوهامِه صارخًا هو الآخر:

_أنتما لستُما في مسابقة لتتنافسا على الأفضلية! استيقظ أيها الصبي الواهِم فإيفان أخوك وليسَ مُنافسك ولا جائزة ستُقدم لك بعد أن يجيئ إليك رأسُ أخيك على طبقٍ من فضة!

_لا أُريدُ رأسه!

_أُدرِكُ ذلك!.. أفهم وأدرك أنك لا تريد موته وأنا لا أريدُ موت أيٍ منكُما.. أتعرف يا آرثر ماذا كانت وصية أمي لي قبل موتِها؟.. كلماتها وهي تحمِلُ إيفان بين كفيها؟ لقد حدثتني عن أنَّ الجمال الحقيقي يكمن في الترابط، أن السِحر الذي يجعلنا نحيا هو تلك الأيادي التي تدفعنا للأمام.. أوصتني بأن أحافظ على هذه الأسرة بأي ثمن.. وقد كان أول ما فعلتُه هو أن مَنحتُ إيفان اسمه.. أي "الشابُ الساحر" الآسر والجذاب.. وتمنيتُ أن يأسر الكثيرين ليمدوا له أياديهم بعونهم دائمًا، ولن نكون نحنُ _عائلته_ أول مَن نقذف به من على الجرف!

اللحظاتُ التي أمضيتها لأول مرة وسط عائلة تدعمني بدلًا عن عائلة ترفُضني كانت أكثر اللحظات قيمة في حياتي، رغم ذلك فإنني في النهاية ودعتُ والدي الذي تسامح معي ومع نفسه وودعتُ آرثر الذي ظل ممتعضًا بالقدر المُطاقِ فحسب وأليكس الذي ابتسمَ ابتسامة عريضة ملوحًا بيدِه بوداعي وأنا أركب العربة لأستقِرَّ جالسًا في المِقعد وحيدًا لا يسعُني سوى التفكير فيما مضى وأنا أُراقب المطر الذي تحولت زخاتُه العنيفة لقطراتٍ متفرقة خفيفة وجسدي يهتزُ كل حينٍ بفعلِ المطباتِ التي تواجهها العربة التي سحبها حِصانانِ مُنهكانِ من طول هذا اليوم.

بالنسبة لي فقد كان يومًا جيدًا نسبيًا تمكنتُ فيه من فَهمِ شخصية النائبة ياسِن آزورش أكثر من ذي قبل، غمرني فيه احساسُ السعادة لدى امساكِنا بطرف خيطٍ في قضية قاتِلِ

المَلك، وذقتُ فيه طعم الأمان عندما احتواني والدي بين ذراعيه كما لم يفعل طيلة حياتي.. رغم كل ذلك أحسستُ أنَّ جلستنا العائلية تفتقدُ أخي جايد بشدة، جايِد الذي يمتلك نفس عيني أليكس العسليتين وشعرًا طويلًا بنيًا مائلًا للسواد لطالما امتلك كذلك شخصية منطوية حساسة للغاية..

عندما كُنتُ صغيرًا كانَ أليكس دائمًا ما يقضي وقته في الدراسة أو في الأكاديمية لأن فرق السن بيننا كان كبيرًا، آرثر كذلك ظَلَّ يعزِلُ نفسه في الدفيئة بين نباتاتِه ويواصلُ هوسه الغريب بالتجارِب على النباتاتِ السامة وبين فينة وأخرى كان يُشقق الأرض بسحره بغية انباتِ شيءٍ ما فيتسببُ في انهيار جدارٍ عن غير قصد! وكلما اقتربتُ من آرثر كان يردعُني لا لأنه كرهني منذُ طفولتِنا وإنما لأن طبعه كان هكذا، مُندفعًا وحادًا ولا يعرف كيف يعبرُ عن ذاته كما لو أنه ورث شخصية والدي تمامًا..

في سنواتي الأولى لا أذكر ابتسامة شخصٍ كما أذكر ابتسامة جايد، أقفُ خلفه ولا أستطيع أن أرى مِنه شيئًا لقصر قامتي سوى شعرِه المربوط وكفيه المليئتينِ بالألوان والدهانات المُتناثرة في كل مكان، كان يرسُم دائمًا ولم يكن يخرج ليلعب معي أو حتى مع الأطفالِ الآخرين مُطلقًا، بالنسبة لي لم يكن شخصًا سيئًا أبدًا منذ البداية إنما كان حساسًا فقط أكثر من أي شخصٍ آخر عرفتُه.. أذكر عندما بلغتُ الثالثة عشرة وكانَ جايد في الثامنة عشرة من عمره أي سِنُّ دخولِ الأكاديمية التي يختارها.. ليلتها تشاجر مع والدي على مرأى ومسمعٍ مِنَّا جميعًا بل وحتى من الخدم.. أخبرنا أخي بأنه يريدُ أن يدرُس الفن وأنه سيخطب فور دخوله الأكاديمية الفتاة التي أحبها بصدق، لكن جايد قد كُسِر من كلماتِ والدي وقد كان هشًا أكثر من قدرته على تركِ المنزل بنفسِ التمرُدِ الذي فَعلت، لذا فهو مُنذ ذاك الحين لم يَعُد ذلك الفتى الذي يبتسم لي كُلما تسللتُ إلى مرسمِه لأُشاهده يَرسُم، هُجِرَت لوحاته وألوانه وفُرشه وأصبح مرسمُه مليئًا بالغبار، تلاشت ابتسامتُه وانهمك مع عمله حتى بات حضورُه في المنزلِ شيئًا نادرًا للغاية ثم أضحى قليل الكلامِ صامتًا وفي عينيه العسليتينِ شرارة كراهية لم تُوَجه لي وحدي بل بدت كأنما وُجِهت نحو العالم بأسرِه.. إن جايد لا يَحمِلُ

لي ضغينة شخصية كما آرثر بل إنه فحسب مجردُ جريح.. أخٌ وددتُ لو أُتيحت لي فرصة لأنتشله من أعماق يأسِه..

أخبرني ذات مرة أنَّ مُحاولة التحسُن في كل شيءٍ لهي مضيعة للوقت..

كانَ ذلك عندما بكيت وأنا طفلٌ ناقمًا من التدريب الذي أدمى يداي ورغم ذلك لم يُظهِر أنَّ لي أية قوى سِحرية.. وبحلولِ الوقت الذي فهمتُ فيه أنه كان يحُثني على أن أطور نفسي فيما أبرعُ فيه فقد منحني ذلك دافعًا آخر لأُصبح ثائرًا وأرى طريقي!

__تأخرت أيها الفارس!

قال لي لوين بينما أرتمي على الأريكة بإرهاقٍ وجسدي لا ينفكُ يرجف من فرط البرد الذي جلبه المطر، استقريتُ لبرهة وحدقتُ في ذلك الطبيبِ الذي يكبرني بعامٍ واحد.. كان يغوص في ملابسٍ سوداء وشعره الأشقر مُبعثرٌ بفوضوية وقد حجب عينيه غامقتي الزرقة اليوم خلف حاجزٍ من النظاراتِ ذاتِ الإطار الأسودِ وهو يغلقُ الكتاب والدفاتر المُبعثرة على الطاولة وينظر إليّ..

__إنك فوضوي للغاية، أتعلم؟

__وما الفائدة من التنظيم؟

__معرفة أين ستضعُ نظارات قراءتك التي استبدلتها خمس مراتٍ منذُ عرفتك لا لسببٍ إلا بسببِ إضاعتك إياها!

فتململ لوين في جلستِه مُتضايقًا من كلامي ثم قال:

__المنزل متسخ، ستأتي الخادمة لتنظفه غدًا..

__مُتسخٌ بسبب فوضاك!

_لن أصبح مُنظمًا فلا وقت لدي!

وعلى إثر جملته الأخيرة ضحكتُ بشدة وأنا أسخرُ منه:

_تتصرفُ كما لو أنك أشهر طبيبٍ في البلاد.

عقبها خلع نظارته جاعلًا إياها تستقِرُّ فوق كتابٍ ذي غلافٍ أخضر على الطاولة وهو يردفُ بجدية مشوبة بالقلق:

_ما أخبارُ قضية قاتِل الملك إذًا ؟

_آه..

همستُ ثُم اعتدلتُ في جلستي وأنا أشبك أصابعي ببعضها وأسرد للوين ما حدث ناطقًا:

_خلال اليومين الماضيين وَصلتنا تفاصيلُ القضية من آيريا ، قرر مبعوثُهم التعاوُنَ معنا مانحينَ إيانا خمسة أيامٍ كحدٍ أقصى لتسليمهم رأس قاتل الملك.. شخصيًا أحسبُ أنهم قلقون بشأن الحاجز وأنَّ ولي عهدِ آيريا الذي اعتلى العرش مؤخرًا "آنسل هاورز" ينوى حسم قضية والده سريعًا ليتسنى له جمع وتدريبُ سحرة نورانيين بسرعة للحفاظ على الحاجز.. حسنًا..

صمتتُ قليلًا متنهدًا وأنا أواصل وسط انتباه لوين:

_من التفاصيل التي وصلتنا أنَّ الملك قُتل عبر سحرِ الهواء إذ سُبلت أنفاسُه تزامُنًا مع احساسِ كل الموجودين داخل القلعة بطاقة سحرٍ هائلة.. هائلة لتلك الدرجة الكافية للتغلُبِ على الملك داميان وهو أقوى ساحر نوراني في آيريا جميعها! الرجلُ الذي لمحه الحراسُ وسط الهرج والضجة التي أعقبت سقوط داميان كانَ رجلًا ذو قامة طويلة لم تبدو ملامحُه المخفاة خلفَ قناعِ مُهرجٍ أبيض واضحة لهم لكن ما جعلهُم يتأكدون من أنه "كوتسيري" هو هُتافُه باسم مملكتنا قبل أن يستعمل سحر الهواءِ خاصته ليطفو في الهواء بسرعة ولم يتمكنِ الحراسُ من النيل منه.. كان سريعًا ومُتمكِنًا للغاية وجالبًا للبلاءِ الشديدِ لنا..

_هكذا يُصبِحُ من السهل الإمساكُ به.

صمتت عقب ملاحظة لوين التي ألقاها، فقد كنتُ أعلم أنَّ صديقي الطبيب هذا يمتلكُ ذكاءً استثنائيًا في أحيانٍ كثيرة ولم يكن هناك ضير من الانتفاع بملاحظاتِه، لذا سألتُه مستفسرًا:

ـــماذا تقصد؟

ـــإنّ كان هتف قائلًا "المجدُ لكوتسيريا" فهو من الشمال أي المدينة العسكرية و"مدينة الظلال"، وإن هتف "المجدُ لكوسيريا" مُتجاهلًا حرف التاء فهي لهجة الجنوبيين، أما إن قالَ "فاليُبارك الرب" أو "انتصر الرب" فهو من المتدينين الذين يعيشُ أغلبُهم في مدينة النُحاس والمدينة الساحلية وفاري.. هكذا سيضيقُ نطاق بحثكم ثم يمكنكم الذهابُ إلى السِجل المدني والاضطلاعُ على قائمة مستخدمي سحر الهواء وستصادفون حتمًا شخصًا برز في استخدامه وتمتلك مهارة ستكفيه ليغتال الملك، قد يكون على علاقة بالجيش أو يمتلك شخصًا قُتل في الجيش وهذا سببٌ كافٍ له ليحمل ضغينة ضد آيريا ومِلكِها..

لوين الذي وضع كتبه ودفاتِره فوق بعضِها أراد النهوض متثائبًا لكنني وسط دهشتي التي غمرتني استوقفتُه قائلًا بسعادة:

ـــنفسُ الكلِماتِ التي قالها لنا القائدُ لوثيار والتي اتبعناها أنا والنائبة ياسِن حتى تمكنا في النهاية من تتبع مستخدمِ سحر هواء بارزٍ كان قائد فُرسانٍ في الجيش قبل عشرة أعوام لكنَّه أُصيب إصابة جعلته عاجزًا لمدة وقُتِل أبناءُه الثلاثة في المعارك ضد آيريا.. وعلى الرغم من أنه قرر أن يعيش حياة هادئة في نهاية المطاف وأن يبتعد بابنه الممرض وحفيدته الصغيرة عن الجيش وانتهى به المطافُ للعملِ كخبازٍ في المدينة العسكرية فإنَّ الموت ظل يطارده وأخذ منه آخر ابنٍ تبقى له.. قُتل ابنه الممرض الذي التحق للخدمة في الخطوط الخلفية مع طاقم الاسعافاتِ في معركة دموية قبل عامٍ واحد.. تلك المعركة خُلفت فيها القوانينُ وذبح فيها المجرمون من آيريا كل ممرضٍ وممرضة وكل مصابٍ وجريحٍ في قضية استدعت حتى انتباه حلف الشرق.. ويبدو لي أن قلب ذلك الأب الممزق هو ما دفعه للانتقام دون تفكيرٍ جالبًا الفوضى والحرب الشاملة الوشيكة على المملكة.. اسم ذلك الرجل هو "روسيل وِين".. الخبازُ الذي قتل الملك والذي شهد لنا فتى من رينيلي بالكثير عنه..

ـــفتى ؟

ـــنعم.. فتى في التاسعة عشرة من عمره زاره روسيل هذا قبل بضعة أيامٍ هنا في رينيلي جالبًا معه الحفيدة الصغيرة التي وُضعت أمانة في يد قريبها ذي التسعة عشر عامًا، لكن الفتى الذي يمر بظروفٍ صعبة ماديًا قد يئس من عودة العم الذي كان يهذي بأنه سيقتل ملك آيريا وعندها تقدم الفتى بطلبٍ ليدلي بشهادته للقائدِ لوثيار ويحصل على المكافأة المالية وكذلك ليتخلص من عبءِ العناية بالطفلة الصغيرة مُسلمًا إياها للوثيار ولرجالِ الشرطة الآخرين..

ـــيا له من قريبٍ غيرِ أمين!

سخر لوين ثم وقف قائلًا:

ـــسأنامُ قبل أن يُصيبني الصُداع!

لكن جرس البابِ الذي تردد صداهُ في أرجاءِ المنزل معلنًا عن قدومِ زائرٍ فجأة قد جعلنا أنا ولوين نتحفزُ مُنتبهين في الثانية عينها متسائلين عن هوية زائرٍ يجيءُ في هذه الساعة المُتأخرة من الليل!

سرتُ أنا باعتباري الجندي والشخص الخبير في القتالِ متقدمًا لفتحِ البابِ بينما يرمقني لوين من آخر الممر بنظراتٍ خائفة دون محاولة منه لإخفاء ذاك الخوف

ـــلا أحد يريدُ أن يموت صغيرًا!

صاح بي لوين مُشتتًا تركيزي وأنا أفتح الباب ببطءٍ ليكشِفَ عمن خلفه، وسط هذه الليلة الملبدة بغيومِ العواصِف ولا قمر فيها ولا ضياء ألقى مصباحُ الشارع إنارة كافية لتمكنني من رؤية شخصين ما توقعتُ أن أراهما معًا مُطلقًا ناهيك أن يأتيا إلى أمامِ بابي سويًا! أولهما كان أخي جايد الذي حسبتُه في رحلة عملٍ أخرى والذي لم أره لما يقربُ السنوات الأربع!

والشخصُ الثاني كان هارولد كاستِل.. صديقي الذي أُصيب في المعركة ولم يرد عقبها على أيٍّ من رسائلي مُطلقًا!

الفصلُ العَاشِر

يجِبُ أن يُعدَم!

دخل كِلاهُما إلى غرفة الضيوفِ وسط دهشتي التي لم أستطع إخفاءها مُطلقًا، غير أن لوين الذي لم يكن على معرفة بأي منهما قد ذهبَ وأحضر الشاي وهو يتثاءبُ نعسًا غير مُدركٍ حقًا استحالة ما يحدث، صديقي وأخي اللذانِ لم أتوقع أن يتقابلا في حياتي قد جاء كلاهما معًا لرؤيتي ؟!

ـــهل أنت بخير، إيفان ؟

قالها هارولد بصوته الذي غابَ عني لمدة شهرين فاضطربت نفسي مُتذكِرًا تفاصيل القتالِ الدامي الذي قاتلناهُ حينها، كيف أُصيبَ ونزف بشدة وظلَّ رغم ذلك حتى آخِر لحظاتِ وعيه يناديني لأثني رأيي وأمتنِع عن قِتالِ الأعداءِ وحيدًا، وكيفَ ظللتُ أُراسِلُه بقلقٍ ولم يرد عليَّ أبدًا..

ـــأنا بخير يا هارولد، وكنتُ سأكون بحالٍ أفضل لو رددت على رسائلي التي تراكمت بلا جواب.

عبس هارولد وبدت عيناه شديدتا الخضرة أكثر عتمة وكآبة بعد كل تلك الأيام، جسده كان هزيلًا أكثر من ذي قبلٍ وشعره الطويلُ كان قد بات أطول وأكثر فوضوية، وبصوتٍ حملَ نبرة شديدة الأسَفِ قالَ بخفوت:

ـــوصلتني رسائلُك في الشهرِ الأول لكن حالتي الصحية لم تكن تسمَحُ لي بالرد وكذلك كنتُ أمُرُّ بحالة غريبة من فقدانِ التحكم في قوتي السحرية، كانت تتدفقُ بلا وعيٍ مني وتستمرُ باستنزافِ جسدي وبالتالي رأيتُ مئاتِ الرؤى التي لم أريد البحث عنها وإني لأحسبُ أن اصابتي الشديدة في القتال هي ما صَعبت عليَّ السيطرة على قدراتي.. بعد انقضاءِ ذلك الشهر أردتُ المجيء لرؤيتك ومحاولة العودة للعملِ مرة أخرى لكن أحدى الرؤى التي رأيتُها عن غير قصدٍ كانت مُهمة وخطيرة بما يكفي لتدفعني للعزفِ عن المجيء والسعي خلفَ تِلك الرؤية..

ـــإيفان..

تحدث جايد مُقاطعًا كلمات هارولد المُهمة للغاية، عيناهُ اللتانِ تحملانِ لون العسلِ كانتا شديدتي الجدية، جدية جعلت لمحاتِ الحُزنِ القديمة المحفورة بداخله تتلاشى تمامًا، أهذا ما تعلمه أخي من بيعِ أسلحة تُسلب بها حياة الآخرين كل تلك السنين؟ أم أنها فقط مَهارة تحثه على الفصلِ بينَ مشاعره والعمل؟

__نعم يا جايد؟

قُلتُها مُعتدلًا في جلستي ومن نبرتي التي لم أنتبه لفرط حزمها أخذ لوين دفة الحديث بعجلٍ سامحًا لي أن أُرتِب أفكاري للحظة وقال:

__هل أنت حقًا جايد إدوين.. الابن الثاني لأُسرة إدوين وثالثُ أشهر تجارِ السلاحِ في البلاد؟

__نعم..

قالها أخي مُبديًا شيئًا من الانزعاج الطفيف، بحلولِ الوقت الذي عاودنا فيه حوارنا المبتور كنتُ قد ارتشفتُ رشفة من الشاي الساخن بين كفي وأضحى بإمكاني أن أرسو على كلماتٍ محددة لأسألها

__لماذا أنتما هُنا؟ معًا؟

سؤالي الواضِحُ والصريح المشوبُ بتوتري قد جعل هارولد يرفعُ زاوية فمه بابتسامة جانبية فهمتُ من خلالها أنه رأى صعابي في إخراج السؤال وأردف:

__لم أعهدك خجولًا!

__ليس كذلك هو فقط يذهبُ إلى الحضانة كثيرًا هذه الأيام!

رد لوين المازحُ قد جعل غضبي يغلي مما دفعني لوضع قدحِ الشاي على الطاولة بعنفٍ تردد صداهُ في كل أرجاء الغرفة قائلًا بحنقٍ جلي:

__كفى!

ولما امتثلا لأوامري كاسرينِ حاجز التوترِ ببضعِ ضحكاتٍ أمسى بإمكاننا مُتابعة حوارِنا بالجدية السابقة عينِها..

ـــإذًا ؟

قلتُ فتابع هارولد:

ـــرأيتُ نفسي واقفًا وسط ساحة مليئة بأعلامٍ برتقالية تُرفرِفُ على الجدرانِ الحجرية التي تحدُ الساحة.. كانت هذه أعلامُ آيريا بلا شكٍ وقد كُنتُ أنا على أرضِهم أُراقِبُ ظل شخصٍ يقفُ أمامي والريح الباردة تلتفُ من حوله بينما كفى ظلَّ قابضًا على سيفي الحادِ لأظهر كما لو أنني أحمي ظهرَ الرجُلِ على ما يبدو.. بعدها وعلى الرغم من أن رؤياي كانت مشوهة بفعل الحمى التي غزت جسدي لكنني استطعتُ بلا صعوبة تمييز كل تفاصيلِ وجه الرجلِ الذي استدار نحوي والريحُ تعصف من خلفهِ بعنفٍ وضحك بشدة واستمتاعٍ وهو يقول لي:

ـــروسيل وين قتلَ مَلِك آيريا.. الآن يمكنك الاطمئنان على أميرك!..

تنهد هارولد ومسح جبينه المُتعرِق كما لو أنَّه قد عاد ليُعايش لحظات مرضه واضطرابِه تلك مرة أخرى لكنه تحامل على نفسِه بتلك الشجاعة التي يتحلى بها دائمًا وواصل كلماتِه ناطقًا:

ـــتلك الرؤية سلبت نومي لمدة يومين كاملين، وترتني وجعلتني أُفكِرُ فيها مليًا حتى استقر رأيي على القيامِ بما يفسرُها ويوضحُها لي، رغم تحسنِ صحتي توًا فقد قررتُ أن أستعمِل سحري المُنهِك علني أرى شيئًا أفهمُه.. قصدتُ أن أبحث عن "أميري" الذي حدثني عنه الرجلُ قائلًا أنني يمكنني الاطمئنان عليه بموت ملك آيريا ذلك، وبعد استبصاري عزمتُ على جعلِ رؤيا موتِ الملكِ حقيقة..

سأل لوين وهو يعقدُ حاجبيه:

ـــوماذا رأيت ؟

فأجابه هارولد بخفوت:

ــرأيتُ ضرورة موتِ ملك آيريا..

واسترسل يزودُنا بالتفاصِيل:

ــرأيتُ ملك آيريا جالسًا تحت ستارِ الظلامِ يُحدِثُ أحدًا مُلثمًا بالسوادِ وقد وصل إلى مسامعي صوتُ الملثم وهو يقول: بحلولِ نهاية أكتوبر ستصِلُ الشحنة التي أرسلناها إلى مملكة "أرونيا" ومن هناك ستستلمها كوتسيريا حيثُ ستصل إلى القصر الملكي تحت اشرافُ رجالنا وتُقدم للأميرِ إميلير بسلاسة، بعد أن تزودنا بالسُم الملائم النادر الذي حدثتني عنه يا جلالتك فسيستحيلُ معرفة أو تتبع أو كشفُ الشحنة ومحتواها وبحلول نهاية أكتوبر سيسقُط ولي العهد الوحيد لكوتسيريا جثة هامدة..

عقب كلماتِه ضحك ملك آيريا بشدة ضحكة الواثق من نفسه وهو يُردِف: وسيُتهَمُ الملك حسب الأدلة المزورة التي سنراكِمها لدى حلف الشرق بالجنونِ وبأنه مَن قتل ابنه بيديه! ستسقط كوتسيريا بسهولة ما دمنا نمتلكُ سمًا كهذا!

كلماتُ هارولد كشفت لي مقدار المصيبة التي كُنا سنمر بها أيَّ الطريقينِ سلكنا، من حديث صديقي فإن له حتمًا يدًا في مقتل داميان وقد تأكدتُ من ذلك لدى قولِ جايد لنا بصوتٍ واضح:

ــطلب مني الدوق آندري فوكالت المشرِفُ المباشر على أكاديمية "سكاند" العسكرية ووالد الجندي هارولد تزويده ببعضِ الأسلحة البيضاءِ رغبة مِنه في توفيرِ أدواتٍ مناسبة للمتدربين الجدد هذا العَام، ذهبتُ إلى هُناك قبل شهرٍ تقريبًا حريصًا على أن أرافق بضاعتي وأُسلمها للدوقِ شخصيًا في المدينة العسكرية لا لشيءٍ إلا لاحترامي لهذا الرجُلِ الذي كان في أحدِ الأيامِ فارسًا ملكيًا مَهيبًا، بحلولِ الوقت الذي سلمتُ فيه الطلبية وسرتُ خارجًا من منزل آلِ فوكالت استوقفني هارولد طالبًا عوني في مهمة خطيرة..

ــصحيح!

استلم هارولد دفة الحديث مرة أخرى وبكُلِ انفعالٍ أخذ يسرُد ما حدث:

ـــوددتُ أن أطلب المساعدة من إيفان لما تيقنتُ أنه من الضروري حقًا الوصول إلى الرجُلِ روسيل وين ومساعدته في مبتغاه والتخلُص من ملك آيريا إذ أنني حتى لو طلبتُ المساعدة من والدي أو من السلطاتِ والجيش فلن يقدروا على فعل شيء، وهم بالأصلِ لن يصدقوا مستبصرًا مريضًا وسيقولون أني كُنت أهذي، لكنك تعرفني يا إيفان وتدرك كذلك مدى ثقتي بقوتي وبأنَّ للاستبصارِ أسرارٌ لا يفهمُها الكل، ولذا وددتُ لو ألجأ إليك وقد عقدتُ العزم على ذلك بعد أن أذهب قاصدًا المدعو روسيل، ذلك الرجل الذي لم يكن عسيرًا لي العثور عليهِ كَونَه كان قائد فُرسانٍ قويًا وبارزًا في المدينة العسكرية ذات يوم.. التقيتُه وعرضتُ عليه المُساعدة وأني سأحمي ظهرهُ إن هو أراد قتل الملك داميان، ولما رغبت في المجيء إليك فقد غمرني التردد لعدمِ رغبتي في إدخالك وسط أمرٍ قد ينتهي بالإعدام، أما أنا يا صديقي فلا هدفَ عظيمًا أحيا لأجله إنما أُحاوِلُ أن أموت بعد أن أكون مُفيدًا وأقدم خيرًا، نفس تلك الميتة التي حظي بها إخوتي، وسأحظى بفرصة مُستساغة للانتقام!

ـــإخوتك؟

كررتُ أحثه على تفصيل كلامِه لكنه عَزف عَن ذلك مُتجاهِلًا إياي وواصل مسار حديثه بسرعة:

ـــلما عرفتُ أن جايد إدوين قد جاء إلى مَنزِلنا فقد أيقنتُ أنه أكثرُ شخصٍ مُناسِبٍ للخطة التي كنتُ أُعدها يا إيفان! كان تاجرًا دائم السفر من أسرة معروفة ذو علاقاتٍ واسعة وقد علمتُ أن بوسعه توفير طريقة لنسافِر فيها أنا وروسيل نحو "آيريا العاصمة"، هناك حيث القصرُ الملكي وحيثُ سيموتُ داميان هاورز! وقد كان.. لقد ساعدني جايد لأُساعد روسيل وننهي ظلم داميان..

عمَّ الصمتُ المكان لبرهة أحسبُ خلالها أنَّ حجم المُصيبة بات واضحًا للجميع، وقد كنتُ أنا أول مَن كسر حاجز السكون بقولي بصوتٍ جاهدتُ لكيلا يخرُج بنبرة غاضبة لكنني فشلت!

ـــألم يخطُر على بالك يا هارولد وأنت تخطط رفقة روسيل للإطاحة برأسِ داميان أنه أقوى ساحرٍ نوراني في بلادِه وأن احتمالية انهيار حاجز الشياطين مِن بعده ستكون عالية؟! ألم تخف على حياتك وحياة روسيل الذي ترك خلفه طفلة صغيرة بحاجة جدها ليعتني بها؟ أو على حياة جايد الذي وفر لكما طريق السفر بغباء؟ أو حتى على حياة قائدي الذي سيُعدَمُ في حال لم يُسلِّم روسيل إلى العدالة في غضون يومين وبعدها ستندلِعُ حربٌ ضارية! مَن أنت بحقٍ وأين هارولد!

لم أتمالك أعصابي حينها حقًا وقد ثار هارولد إثر كلماتي تمامًا كما حدث لما اشتبكنا وتعاركنا في آخر معركة سويًا، وردَّ علي صديقي غاضِبًا بدوره:

ـــبإمكانِ آيريا تجنُب انهيار الحاجز إن طلبت مِنَّا أن نُمِدها بالسحرة والعون، أمَّا روسيل فقد هربَ إلى مكانٍ لن يصل إليه فيه أحد وحفيدتُه سأوصِلُها إليه أنا بنفسي بعد أن تهدأ الأوضاعُ كآخر عهدٍ بيننا، جايد لم يفعل شيئًا غير تزويدنا بمخططاتِ وتصريحات السفر لذا لن يُسأل قانونيًا وحتى إن حدث فهو يستطيعُ إنكار معرفته لنيتنا بكُلِّ سهولة! أما حياتي أنا فما عادت تهم يا إيفان.. عرفتُ منذ البداية أنها ستُزهَقُ في الجيش!

ـــم.. ما قصدُك؟

سألته هامسًا مصدومًا جاعلًا غضبي يتلاشى ليحِل محلهُ التساؤل المَحض، هارولد الذي لا زال مُنفعلًا أجابني مقطبًا حاجبيه مختنق الصوت:

ـــكان لي خمسة من الإخوة الأكبر مني أجبرهم والدي على الالتحاق بالجيش بغية الحفاظِ على فخر أسرتنا حفاظًا لم يستطِع هو أن يفعله! دربهم منذ صغرهم وأنا من بعدهم لكنهم جميعًا قتلوا واحدًا تلو الآخر في المعارك ضد آيريا.. كبرت وأنا أشاهِدُ منزلنا يخلو من الإخوة واحدًا تلو الآخر حتى أن أمي التي فقدت عقلها لدى فقدانها فلذاتِ كبدها قد رمت بنفسِها من السقفِ وماتت.. ظننتُ أنني أنا ـــالصبي الأخيرـــ سأحظى برحمة والدي

وسيعفيني من الذهاب للجيش الذي دُربتُ منذ صغري لأكون جنديًا فيه.. أتذكر جوابي عندما سألتني عن أول مرة أقتُل فيها؟ لقد كنت أشارك أبي في اعدامِ المجرمين في المدينة العسكرية وأقتلهم بسيفي وبيدي هاتينِ مُنذُ كنتُ في العاشرة..

تنفس هارولد بعمقٍ وبات ارتجاف كفيه واضحًا لثلاثتِنا وهو يردف:

_كُنت مميزًا بالنسبة لي يا إيفان، لأن ارادتك كانت هي دافعك للالتحاق بالجيشِ عكس شخصي الذي أُجبِر على ذلك بينما كان كُل ما استطعت فعله لما غضبتُ على حالي لأنتقم من أبي هو اسقاطُ اسم عائلته واستخدامي لاسمٍ بديل.. هارولد كاستل بدلًا عن هارولد فوكالت لم تكن كافية أيضًا وظل بإمكانِ الجميع معرفة أني ابنُ فوكالت! لما جاءتني فرصة الانتقام من آيريا على مقتلِ إخوتي فقد رَحبتُ بذلك بكل سرورٍ وإني الآن يا إيفان أحمِلُ فرصة نادرة أخرى.. أحملُ فرصة تدنيسِ اسم فوكالت للأبد.. عندما يُعدَمُ ابن فوكالت الوحيد كقاتلٍ للملك وسط جميع ساكني المملكة كيف ستكونُ تعابيرُ وجه والدي يا ترى؟

هارولد الذي حَمَل كُرهًا ويأسًا كبيرين لم أكن أعلمُ أنه يَحمِلُ أيًا مِنهُما رغم معرفتي به لمدة أربعة سنينِ كامِلة قد قادهُ يأسُه هذا إلى اتخاذ قراراتٍ خاطئة لم يفكِر مليًا في عواقبِها، عواقبٌ ستجلبُ الدمار عاجلًا أم آجلًا، فحتى لو كان ما فعله بغية إنقاذ الأمير إميلير بلا بُد أننا كُنَّا لنجد طرقًا أفضل.. فقط لو لم يكن هارولد كتومًا ليحمل كل هذا الألمِ بداخله وحيدًا، مهما كان والدُه مُخيفًا أو سيئًا بدلًا عن الانتقام منه أو تدنيسِ اسمه في الترابِ ألم يكن يستحسنُ لو حاول هارولد إعادة بناءِ علاقتهما؟ كلا.. لربما حاول ذلك مرارًا لكن الدوق فوكالت كشخصٍ كان يومًا فارِسًا ملكيًا مُخيفًا مرعب السمعة فقد لا يكون استمعَ إلى محاولة هارولد مُطلقًا.. لا يمكنني لوم هارولد البتة!

_جِئتُ إليك لأطلُب منك مساعدة أخيرة يا إيفان.. رأيتُ حياتي وهي تنتهي..

_كلا!

قاطعتُه بصراخي فدوى صوتِ الرعد كما لو أنه صدى لصراخي لكن هارولد أكمل وهو يبتَسِمُ برفقٍ وهدوء كما لو أن شيئًا لم يكن:

ــبما أنني وعدتُ روسيل أن أوصل إليه حفيدتَه سالمة لكن حياتي تُظهِرُ أنها لن تمهلني فأنا أود منك إيصال الطفلة إلى جدِها كوني أعلَمُ أنك لن تقبض عليه وتخالِف وصيتي لك..

ــما الذي تهذي به.. هارولد أنت لن..

ــإيفان.. أريدك كذلك أن تُؤتمَن على جايد، صحيحٌ أنه شقيقك قبل كل شيء لكنني فضلتُ مجيئه إلى هنا حتى يشهد على حديثِنا.. برئه من أي تُهمة قد توجهُ إليه يا نائبَ الفارِسِ الملكي إيفان إدوين ففي النهاية إنَّ شقيقك لم تكن لهُ يدٌ مباشرة في الجريمة.

مع نهايةِ كلماتِه انتشرَ ضوءٌ اخترقَ النوافِذ ليُعمِي أبصارنا جميعًا، ضوءٌ باهرٌ جعل جسدي يرتَجِفُ بالمُجمل وعيناي ما عادتا قادرتينِ على رؤيةِ أي شيءٍ البتة.

ــتبًا!

صاح لوين بصوتٍ بدى ضعيفًا لأذني المشتتة وفكرتُ مُتحركًا بسرعة معتمدًا فحسبُ على ذاكرتي الحركية ناويًا القبض على سيفي الذي كنتُ قد تَركتُه قرب الأريكة عندما عدتُ من عملي في وقتٍ سابق، عندما استطعتُ رغم عدم رؤيتي لأي شيءٍ امساكَ سيفي والوقوفَ بتأهُبٍ مُستشعِرًا الخَطر المُحيطَ بنا انقشعَ النور الباهر الذي خمنتُ أنه كانَ سِحرًا ما ولم تمضي ثوانٍ حتى بدأتِ الأشياءُ تتشكلُ أمامي من جديدٍ في محاولة جاهدة لعيني لأن تُبصِرا مرة أخرى.. لم تتضح أمامي هياكِلُ ثلاثة أشخاصٍ كما كُنا قبلًا بل رأيتُ بهدوءٍ وبطءٍ ستة أشخاصٍ يلتفون حولَ الثلاثة رافعينَ سيوفهم في الهواء بتأهب، مِن حولي كانَ قد توقفَ صوتُ المطرِ وتجلى فقط صدى كلماتٍ ما كُنت أتوقعُ سماعها قطُ في أذني

ــهذا الجيشُ الوطني.. نطلبُ أن تُسلموا أنفسكم طواعية بغية التحقيق وإلا سنضطرُ للتدخلِ بالقوة!

الصوت كان صوتَ لوثيار ألفرين والهيئةُ التي تجلت لما اختفى الضوءُ تمامًا مِن أمامي كانت هيئته، هو نفسه بشعره البرتقالي وعينيه اللتانِ أظهرهُما الليلُ في عتمته أكثر حدة وشرًا وزرقة.. تلك هي اللحظاتُ الوحيدة التي يمكنني أن أصف فيها شخصًا فخورًا كلوثيار بالشر.. اللحظة التي أصبحَ فيها ضِدي..

إلى يمينه كانت النائبة ياسن آزورش ترمُقني بنظرة حزينة من عينيها الخضراوين مهما جاهدت لتجعلها جدية فقد أبت! ومعهما كان أربعةُ جنود يستلون سيوفًا لا ترتجفُ وسط كلماتِ لوثيار التي تكررت ثانية:

__هذا الجيشُ الوطني.. نطلبُ أن تُسلموا أنفسكم طواعية بغية التحقيق وإلا سنضطرُ للتدخلِ بالقوة!

فصحتُ قائلًا وسيفي يرتفِعُ في وجه قائدي:

__ما هذا بحقكم؟! لماذا تطلبوننا للتحقيقِ أيها القائد؟

__أنت تعلمُ السبب يا إيفان..

قالها ويداهُ ساكنتانِ بدون أن يستل سيفه حتى، وبنظرة من طرفِ عينه كان يُحدِقُ نحو هارولد الذي وقف بثباتٍ غير مُبالي بينما ينطقُ ألفرين بالتهمة:

__هارولد فوكالت مُتهمٌ بالمساعدة في اغتيال الملكِ داميان.

__ستقتُل هارولد!

نطقتُ بخوفٍ فهز لوثيار كتفيه وهو يقول:

__لستُ أنا بل القانون!

وفي تلك اللحظة بدت كُلُّ الأشياءِ مِن حولي كما لو أنها وُضعت في إناءٍ وضُربت بالمضرب بقسوة، تقدم الجنودُ بسيوفهم ليمسكوا بسهولة بلوين الذي رفعَ كفيه مُستسلمًا عديمَ الخبرةِ في القِتالِ تمامًا، جايد الذي ظلَّ هادئًا هدوءً يُحسَدُ عليه لم يتحرك قيد أنملة عندما كُبِلت ذراعاهُ وراءَ ظهرِه بينما أيقنتُ وسط نوبة الهلعِ التي انتابتني أنَّ لوين الذي لا

دخل له بأي شيءٍ لن يتأذى وأن لوثيار ليس من النوعِ الذي قد يُؤذي شخصًا بريئًا لذا سيكونُ بخير بعد التحقيق.. جايد لا يَحمِلُ تُهمًا خطيرة وإن استطاع إثبات أنَّ من عادته تسهيل اجراءاتِ السفر والحصول على تصاريحٍ كونه تاجرًا فلسوف يُطلقُ سراحُه بكفالة كأقصى المساوئ.. أمَّا هارولد فسيُعدَم وهذا ما كُنتُ مُتيقِنًا من أنه سيحدُث.. صحيحٌ أن الغاية لن تبرر الوسيلة وأنَّ قتل داميان رُغم أنه ظالمٌ يُعدُ جريمة لكنني حتى لو كان تفكيري مشلولًا تمامًا لم أكن في أي حالٍ من الأحوالِ لأُسلم هارولد للشرطة، حتى لو فقدتُ وظيفتي بسبب ما أنا مُقدمٌ على فعله فسأمضي!

بعد مضي ثانيتين كُنتُ رفقة هارولد المسحوبِ بيدي نهرولُ نحو المخرج، الجنديانِ اللذان اعترضا طريقنا قد أطحتُ بهما بضربتين متتاليتينِ دون أن أقتُلَهما، ولما حانت مِني التفاتة سريعة نحو قائدي رأيتُ نظرة امتعاضٍ تتجلى على وجهه وهو يرفَعِ كفيه مُطلقًا شرارة من سحر ناره لتطوي المسافة نحوي سريعًا لولا أنَّ النائبة ياسن قد تحركت رافعة سيفها لتعكِس اتجاه الضربة بعيدًا عني، وعقبها وخلال برهة من الزمن كانت قد وثبت فوقَ قائدها رامية إياهُ أرضًا مانعة إياه من مُعاودة الهجومِ عليَّ وعلى صديقي.. في اعماقِ قلبي كنت ممتنًا لها أيما امتنانٍ ودفعتُ حيرتي من تصرُفِها جانبًا لأتمكنَ من التركيزِ الآن على تجربة جديدة في حياتي.. تجربة أن تَهرُبَ من القانون!

الفَصلُ الحادِي عَشر

مُبارزة ضِد الساحِرِ المُعجزة

لم أكن أسمَعُ صوتًا غير صوتِ أنفاسي اللاهِثة، أركُضُ وسط ظلامِ المدينة الذي بدى في غمرة الأمطار المتفرقة كما لو أنه سوف يبتلعنا، الطريق خالٍ بلا ناسٍ ولا عرباتٍ ولا نسمات باردة ولا حياة إلا أضواء مصابيحِ الإنارة، يدُ هارولد التي كنتُ أقبض عليها بشدة ظلت تسحبُني للوراء مُعبرة بوضوحٍ عن رغبة صاحبها في التوقفِ عن الجري، لربما الاستسلام.. والكفُ عن الهرب..

ــاركض يا هارولد! هيَّا!

صحتُ بصوتٍ مختنقٍ وأنا أمنع قدمي من أن تزل وتُكسر في حفرة ما بصعوبة ولأنني لم أكن أعلَمُ حالَ صديقي الراكض خلفي فقد قررتُ لما رأيتُ ركنًا ضيقًا مظلمًا وسط الشارعِ الواسع الخالي أن أتوقف برهة لأُصفي ذهني وذهن رفيقي ولم أضيع وقتًا إذ دلفتُ إليه متجاهلًا أكياس القمامة سيئة الرائحة المتكدسة هناك ورميتُ بجسدي على الأرضِ جالسًا غير قادرٍ حتى على التقاط أنفاسي.

ــإيفان! ما هذا التهور؟ هل جُنِنت!

قالها هارولد الذي وجدَ مجلِسه على الأرضِ بقربي تَعِبًا ومُشبعًا بالغضب!

ــلو تركتُك لكانوا قتلوك!

ــلكِنَّ هذا هو ما أُريدُه.. أتحسبُ أنني أريد أن أورطك وأجعلك هاربًا معي؟

كان مُحقًا، أصبحتُ الآن هارِبًا من العدالة يرافِقُ صديقًا ارتكب خطأ لا يمكِنُ إصلاحَه.. صمتتُ لبرهة وأنا أفكر سريعًا بكل شيءٍ ثم عاودت الحديث مع هارولد:

ــسأتجاوز ما تقوله من ترهاتٍ وسأضربُ برغبتك بقتلِ نفسك عرض الحائط وكذلك لن أفكر الآن في كيفية معرفة لوثيار أنك متورِطٌ في هذا لكنني سأفترِضُ أنه يعرِف بقدر ما أعرف، سنذهبُ إلى مكانٍ آمنٍ بعيدٍ عَنِ الشُبهات لتحتمي فيه ثُمَّ سأتصرفُ بخصوص الباقي.

ـــأيُّ مكانٍ سيكون آمنًا بالنسبة لشخصٍ مثلي؟ أفضل أن أُعدَم بهدوءٍ يا صديقي.

صِحتُ:

ـــلكنني أرفض ذلك أيها الأبله!

فأجابني:

ـــأيها المجنون!

ـــأقبَلُ جنوني ذاك!

عقبها نهضتُ وسحبتُه بيسراي مرة أخرى لنُعاوِدَ الركض، سيفي بيدي اليمنى وأملي الضئيلُ يستمر بدفعي للمُضي، قد نتجنبُ إمساك لوثيار وجنوده بنا ليسَ إذا تواريا عن الأنظارِ وإنما إذا سلكنا طريقًا مُزدحِمًا يجعلنا نندمجُ وسط حشودٍ لن يلاحظونا حينها.. فأفضل طريقة لتخفي عن شخصٍ شيئًا هي أن تهبَهُ ذلك الشيء أمامَ عينَيه!

ـــإلى أينَ سنذهب؟

ـــ٢٢ ب شارعُ ويستار..

ـــقاصدينِ مَن بالضبط؟

ـــهُشش..

همستُ بينما أنخفِضُ حتى كدتُ أبلغ الأرض وأخضرُ العينينِ ينحني خلفي، ثلاثة من جنودِ المناوبة الليلية كانوا يجوبونَ الطرف البعيد من الطريق المزدحم بالناس والعرباتِ والمتاجرِ التي لا تنام ورغم ذلك ظل أخذ الحيطة والحذر واجبًا عليَّ، بحلولِ الوقتِ الذي ابتعدَ فيه الجنود ألقيتُ نظرة سريعة على السماءِ التي صفت من غيومها وخمَنتُ أنَّ الوقت لربما قد تجاوز مُنتصفَ الليلِ بالفعل ولو لم يكن الناسُ يُجهزون لمهرجانِ الخريفِ الذي سيُقامُ بعد أيامٍ ضئيلة لما وجدنا غطاءً تحت هذا العدد الكبير من المواطنينِ في هذه الساعة المُتأخرة.. لو كان لوثيار قد استعانَ بأحدِ مُستخدمي سحرِ التتبُع لكنا أنا وهارولد قد انتهينا.. كلا لربما يعلم لوثيار بالفعلِ مقصدنا ويظنُ أنه لن يحتاج إلى تتبُعِنا حتى! لكنني سأسبِقُ قائدي

بخطوة اليوم ولن أتجه إلى الأحياءِ الفقيرة أو الأماكنِ المعزولة من المدينة لأختبئ فيها كما قد يتوقعُ الأغلبُ وإنما سأكونُ أمامَ عيني لوثيار طوال الوقت..

ـــعنوانُ مَن هذا الذي نَقصِد؟

ـــالنائبة ياسِن آزورش..

سابقًا كُنت قد قرأتُ المَلف الخاص بياسن في أول يومٍ لي معهم في العمل، علمتُ عنوانها الذي أملتُ أن يكون لنا اليَوم ملاذًا وملجأ، في هذه الساعة ستكونُ هي حتمًا قد عادت إلى المَنزِل بعد مطاردتهم المرهِقَة لَنا والتي لَن تُثمِر بشيء..

وقفنا أنا وهارولد أمام العنوانِ المطلوب، كانَ المبنى سكنيًا متواضعًا عاديًا لا يدلُ على الترف أو الرفعة على عكسِ ما توقعت؛ إذ أنني أعلَمُ أن الرُتب العليا في الجيش يُصاحِبُها ترقية مالية بعدَ أول عشرة أيامٍ من الخدمة، في بعض الأحيانِ تُمنَحُ أراضٍ ومساكنٍ وقلاع.. ويظهرُ أمامي أن ياسن قد أهملت كل ما قد قُدِّم إليها.. كلا.. من الفخرِ العزيزِ الذي تتباهى به عائلةُ الفرسانِ ـــآزورشـــ لربما استولى والدُها على ممتلكاتِها باعتبارِها ضمن مكسبٍ مشتركٍ لِلعائلة؟!

شققنا طريقنا عبرَ الأرضية الصخرية وكنتُ أنا من يطرق الباب بصوتٍ كافٍ لجعلِ كلبٍ ما في آخِرِ الحَيِّ يَنبح، أخذتني القشعريرة وأنا أتخيلُ نفسي ماثلًا في المحكمة لوهلة إذا ما رفضت ياسن استقبالنا وجمزتُ نفسي لتذوقِ طعمِ سيفٍ حادٍ شديد البرودة يهوي مستهدفًا عُنقي ثم عُلِّقَ بصري بذاك الباب راميًا كل تخيلاتي المُفزعة وهو يُفتح بقدرٍ ضئيلٍ ومِن خلفه رأيتُ عينينِ ألقى عليهما الليلُ شيئًا من لونه فباتت خضرتُهما بعيدة وشيئًا فشيئًا لما غُمرتا بالدهشة اتسعتا وصُفِعَ البابُ منغلقًا في وجهِنا بعنف.

فتحتُ فمي ناويًا الاعتراضَ لبرهة لكِنَّ صوت الأقفالِ التي فُكت والبابَ الذي فُتح على مصراعيه فجأة قد أوقف اعتراضاتي، من خلف البابِ المفتوح صاحت النائبة آزورش:

ـــهيَّا بِسُرعة، أسرِعا!

فدخلتُ ومِن خَلفِي صديقي ونحنُ نَسمَعُ صوت اغلاقِ الباب الخشبي بقوة، استدرتُ للخلف وشاهدتُ الفتاة واقفة بتأهبٍ مبالغٍ فيه تضعُ يدًا فوقَ الأُخرى وهي لا زالت ترتدي ملابسَ الجَيشِ فبدت شديدة الجدية وهي تنتظرُنا كي نُفهِمَها لِمَ نحنُ هُنا! أردتُ أن أفتح فمي مرة أخرى للحديث لكِنها باغتتني بنبرة حادة:

ـــكيفَ وصلتُما إلى هُنا؟ قال القائدُ لوثيار أنه لا داعي لكي نَبحَث عَنكُما لأنه يعرفُ أينَ ستكونانِ وقد ذَهَب منذ مدة وحيدًا وصَرف كُلًا منَّا إلى منزله..

ـــكيف لم تقلقي بشأنِه؟

وجدتُ نفسي أتجاهلُ كل الأسئلة المهمة لأطرح فقط هذا السؤال الساذج لكن في النهاية حصلتُ على إجابة!

ـــلأنني عَلِمتُ أنَّك لن تؤذيه حتى لو لم تكونا على الجانِبِ نفسه.. كما أنه لن يؤذِيك.

بتعابيرٍ مبتسمة بخفة خطت النائبة آزورش إلى الأمامِ تحثنا على الدخول نحو غرفة الاستقبال، اعطتنا ظهرها بِكُلِ أمانٍ وأخفضت دفاعاتها مما جعلني أمقُتُ ذلك وأقول لها بينما نسير خلفها:

ـــنحنُ الآن مَطلوبانِ للعدالة فماذا لو جئنا إلى هُنا لاختطافك؟ لتهديدِ لوثيار بِك أو لابتزاز قريبِكِ البَعيد؟

ضحكت بصوتٍ ساخِرٍ ويبدو أنها فهمت أنني أقصدُ ملكنا العزيز بتلميحي فقالت تُجيبُنِي كما لو أنَّنِي ألقيتُ نكتة ما:

ـــكانَ من الأولى أن تختطِف أطفال لوثيار بدلًا عني لو كان قلبُك الرقيقُ يتحملُ أيها الجندي.. أو تتوجه نَحو الصغيرِ إميلير..

تحملتُ تلك السخرية المريرة ومضيتُ مدخلًا سيفي داخل غمده بتأنٍ سامحًا لجسدي أن يرتاح على الأريكة بَعد ركضٍ استمر طويلًا، هارولد جلس في أبعدِ رُكنٍ عني في الغرفة كما

لو أنه يمقتُ جري إياهُ للهَربِ بكل جوارحه وياسِن التي لم تُبالي مطلقًا به قد جلست قبالتي وقالت بلهجة نائبة الفارِس الخشنة:

_هاتِ ما لَديك!

_حسنًا..

أخذتُ نفسًا عميقًا ثم أخرجتُ سيلًا من الكلِماتِ أُخبِرُها بِما أعلم وفي النهاية قلتُ وأنا أرصدُ تعابير دهشتها من تصرفاتِ هارولد الغير مدروسة:

_أنا هُنا اليوم بغرضِ طلب مُساعدتِكِ في شيءٍ ما بَعد أن تخبريني أولًا عن كيفية معرفة القائد لوثيار بأن هارولد متورط؟

_لم يعرف أن هارولد متورطٌ فحسب وإنما عَثَر كذلك على قاتل الملك!

كان ذلك الخَبرُ تمامًا يجلبُ إليَّ شعورًا كما لو أنَّ أحدًا ضربني بالمطرقة على رأسي، هارولد الذي بات بالكادِ يتنفسُ وهو يثبُ واقفًا من مجلسه صاح كذلك منفعِلًا:

_ماذا؟! لقد أكدَ لي روسيل ألا أحد سيجِدُه حيثُ سيهرُب!

_بحقِك؟! لقد اختبأ في الغاباتِ الجنوبية قُرب مدينة النُحاس وهو مكانٌ متوقع معروفٌ بكونه مخبأ الخارجين عن القانون، ثم هناك سِحرُ التتبُع وقد تتبعناهُ لا باستخدام دمه وإنما باستخدام دمِ حفيدته وقد نجح الأمرُ بعد أن تعاونتُ بسحر الدم خاصتي مع أحدِ المُتتبِعين.. حسنًا فلنغُض الطرف عن التفاصيل ولأوصلكُما فقط إلى النُقطة المُهمة.. روسيل قد وُجِد ميتًا.. لقد انتحَر! وفي جيبه كان هنالك دفتر يومياتٍ صغيرّ أخبر فيه عن كُل ما حدث معه ولم يغفِل ذِكر هارولد فوكالت في كِتاباته، لذا فهذا دليلٌ مُباشِرٌ جدًا يُدينُ فوكالت وتوًا تدهشُني التفاصيل التي أخبرتني بها يا إيفان عن جانِبِ فوكالت مِن القصة..

_مهلًا..

همس هارولد متوترًا ثم عاود الجلوس كما لو أن كل قواه قد خارت بغتة وهو ينطق:

ـــكيف يُمكِنُ لروسيل أن يَنتحِر؟ كان شديد الفخر بعمله الذي قام به وكان يتوق للهَربِ مع حفيدته إلى احدي دولِ حلف الشرقِ وراء البحر وطلب مني إيصال حفيدتِه إليه.. لم يكن ينوي أن يموت! لقد قُتِل..

ـــكلا كان انتحارًا!

ـــلا يُمكِنُ أن تكوني قد ذهبتي إلى غاباتِ مدينة النحاسِ في هذه الساعات القليلة لكي تتأكدي!

ـــلم أفعل! لكِنَّ فارِسًا ملكيًا موثوقًا من مدينة النحاس قد لبى نداء تواصلنا معه وتعاون معنا في القضية وقد ناب عن حضورنا إلى هُناك وبحسب شهادتِه انتحر روسيل! لماذا يُهمُك أمرُه أساسًا إلى هذه الدرجة؟

بحلول الوقت الذي احتد فيه النقاشُ بينَ هارولد وياسن كانَ عليَّ أن أتدخل لتهدِئة الوضع لكنني كنت مسلوبَ الذهن حقًا بسؤال ياسن.. لماذا يهتمُ هارولد بروسيل هذا؟ هارولد الفتى الهادئ الذي عرفتُه وشاركتُه سكن الأكاديمية لأربعِ سنينَ كامِلة قد تلاشت شخصيته الهادئة الذكية اللماحة تمامًا وأصبحتُ أرى مِنهُ تهورًا وتناقُضاتٍ ما شابهتهُ يومًا.. تُرى هل أثرت عليه الإصابة التي تعرض لها في المعركة؟ هل تأثُر سحره بإصابته قد تسبب في خروجه عن السيطرة وقد أضحى هذا السِحرُ الذي لا يُمكنُ التحكُم به يشوش على عقل صديقي؟ كما شاهدتُ طيلة حياتي فإن سحر الاستبصارِ نادرٌ للغاية وانحصر ضمن عائلاتٍ قليلة ومنغلقة طيلة العصور الماضية ولذا.. قد تكون القوة المفرطة لهذا السحر وتدميره لصاحبه هما سبب عزلة أسيادِه..

ـــاسمعانِي كلاكُما..

قلتُ هامسًا بجدية وبنبرة مرتفعة آمرة فنجحتُ على عجلٍ بجذب انتباهِ القط والفأر وأنا أُردِف:

ـــلدي أقاربٌ في المدينة التجارية مِن جهة والدي ولن يفكر أحدٌ منهم في الرفض إذا ما أخبرتهُم أنك من طرفي يا هارولد، ستساعِدُنا النائبة ياسِن على تهريبك عبر سفينة تجارية

تُبحِر عبر مجرى النهر وهناك ــفي المدينة التجاريةــ ستتوجه إلى الأشخاصِ الذين سأعطيك تفاصيلَهُم بعدئذٍ سيعطونك المال الذي سأرسله إليهم، ستستخرجُ وثائق سفرٍ مزيفة وتتجه نحو مملكة آرونيا بحرًا، هناك ستبدأ حياة جديدة باسمٍ جديد لفترة حتى تستقر الأوضاعُ هُنا وقد يُمكنُك العودة بعد خمس سنوات حيثُ ستنتهي الفترة الزمنية لصلاحية ملاحقة التحقيق ولن تكون في خطر..

ــخطة جميلة..

هكذا قالت ياسن وهي تبتسمُ لتغيظ هارولد على ما أعتقد فقد بدى امتعاضُه واعتراضُه شديد الوضوح لدرجة خانِقة ثم أردفت الفتاة:

ــسننفذُها إلا إذا كان صديقُك يفضل أن يُشنَق!

ــحسنًا..

رد هارولد ثم وقف مضيقًا عينيه ويداه تغوصانِ في معطفه البُني بلونِ القهوة الطويل المطابق تمامًا للون شعره المبعثر:

ــلكن لماذا تطلُب من هذه الفتاة المُساعدة في المقامِ الأول؟

سألني فأجبتُه بابتسامة مُتنفسًا الصعداءَ لأنني ضمنتُ ياسن في صفي:

ــمَن هو الشخص الوحيد الذي لن يشك به أيُّ عامل سفينة إذا ما طلبَ منه تحميل بضائع إضافية إلى المدينة التجارية، بضائعٌ ليست ضمن السجلات الرسمية لكنهم لن يشكوا أنك ستكون مختبئًا في تلك الصناديق، بالتأكيد إنه شخصٌ معروفٌ بخدمته الدائمة للوطن ولا أحد أفضل من النائبة آزورش يحملُ ثقة الآخرين..

استدار صديقي بوقفته وأخذ يراقِبُ الستائر الزرقاء التي تخفي تسرب أشعة القمر من خلفها ويسأل سؤالًا آخر موجهًا إياه لا لي إنما لياسن:

ــوهل يعني إيفان إدوين لكِ كثيرًا لتلك الدرجة التي تُساعدينه فيها مرتين؟ تنقذين حياته مرة وتخالفينَ القانون لأجله مرة أخرى؟

توترتُ من سؤاله الغريب والمنطقي لدرجة فاتني أن أُفكِرَ فيه، أنا أعلمُ سلفًا لماذا أنقذت ياسن حياتي سابقًا لكنني قد جئتُ إليها الآن مرة أخرى بدونِ تردد وبدون أن أسأل نفسي لبرهة عن دوافعها كذلك.. ظنتُها لن تُجيبَ لما طالَ صمتُها لِكنها وهي تتخلصُ من دبوس الجيش ــالسيفِ والهلالِــ الخاص برتبتِها وتضعُه على الطاولة أجابت قائلة:

ــفي المرة الأولى طلب مني قائدي الذي أحملُ له كثيرًا من الامتنانِ أن أساعد النائبَ إيفان، لكن في هذه المرة الثانية أنا نَفسي لا أدري..

توسعت ابتسامتها وأردفت بمرح:

ــقد أكون تواقة نحو حبل المشنَقة أنا الأخرى!

كانَ النهرُ الذي أخذ يَلمعُ تحتَ ضوءِ الفجرِ المتألقِ في ميناءِ رينيلي الرئيسي شديد الجمال، كان منظرًا غُمِرَ بنسيم الصبحِ البارد وغسلَ عن قلبي شيئًا من الهمومِ التي تُثقِلُه مع كل زرقة وموجة أخذتها الريحُ ذات اليمين وذات الشمال، فقد كان عليَّ بعدَ رحيلِ هارولد حتمًا التعرضُ للمُحاكمة ومُحاولة إنكار معرفتي بوجهة صديقي والتملص قدر الإمكانِ من التُهمِ التي ستلاحِقُني حتى لا أفقد رأسي وعملي، الشيءُ الأكيد كان أنني لن أظل نائبَ فارسِ ملكي بما أن رُتبتي عند أول عشرة أيام من الترقية تكون حساسة وقابلة للفقد تحت وطأة أي خطأ، أما الشيء غيرُ الأكيدِ فهو مقدارُ ثقة والدي بي.. هل سيستمرُ فخره بي طويلًا وأنا أتعرض للمحاكمة بتهمة المساعدة في ارتكابِ اغتيال الملك؟.. أصبحت أحسد هارولد الذي لا يهربُ فقط من العدالة اليوم وإنما سيهرُبُ كذلك مِن والده الذي أذاه كثيرًا ولم يصحح خطأه حتى الآن على عكسِ والدي.. تساءلت كذلك عن طبيعة علاقة ياسن بوالدها رئيسِ عائلة آزورش، لم يراعي أنها فتاة وأرسلها إلى مجالٍ يقل التحاقُ الفتيات به لوحشيتِه.. أيريدُ تحقيق أهدافه بغض النظر عنها وعن قوتها أم أنه يؤمِن أنها قوية لتلك الدرجة التي لن يمكن حتى للجيشِ أن يقمعها؟

نظرتُ نحو عمالِ الميناءِ الذين جعل طول وقوفهم تحتَ الشمس بشرتهم سمراء فوق ملابس عملهم البيضاء المليئة بالبقع وهم يحملون ببنية أجسادهم القوية ثلاثة صناديقَ من خشبٍ متينٍ استطعنا توفيرها بصعوبة وتأمين مكانٍ لها على سفينة "يو إيجين" بمساعدة ياسن على الواجهة.. داخل أحد هذه الصنادِيقِ على هارولد أن يجلس بهدوءٍ ويختبئ لحينِ وصول السفينة إلى المدينة التجارية وهناك لن يكون من الصعبِ على مستبصرٍ تجنبُ الأنظار..

__سيكون كل شيءٍ بخير.

قالت لي ياسِن وهي تقفُ بقربي وتحدق نحو الشروقِ الأول للشمسِ بأمل، عدلتُ قبعتي التي تعمدت إلقاءها للظلِ على وجهي لأتجنَب كشف أحدٍ لي وغصتُ بيدي في المعطفِ الخفيف الذي أرتديه وعاودتُ النظر نحو ابنة آزورش، الفتاة التي تمتلك حقًا لخلافة العرشِ وتعزف عن المُطالبة به، الفتاةُ التي تساعدني بغرابة وتبدو وراء ابتسامتها هذه كما لو أنها تخفي رغبة خفية بالموتِ تشدها وتقودُ تصرفاتها دائمًا..

__هل فكرتِ يومًا يا ياسِن في الانتحار.. أقصِدُ تحت وطأة الضغطِ الهائل الذي يأتي من عائلة الفُرسان؟

__هذا..

همست بخفوتٍ وحزنٍ ثم وارت تلك المشاعر سريعًا أظهرت ابتسامة طفيفة مألوفة بعيدة عن كل الجدية التي ترسمُ نفسها بها عادة وأجابت مُحدقة نحو الشمس الجديدة:

__لم أفكر في ذلك قطُ عندما كانَ أخي حيًا لأنه كان يُحبُ هذه الحياة المزعجة ويتمسكُ بها بشدة.. مِن بعده وحتى لو كنتُ مجرد دمية بأيدي عائلتي وأقاربي يدفعونَ بي لأي ميدانٍ أرادوا فإنني ورغم كل ذلك لا زلتُ أُحِبُ الحياة يا إيفان.. مثلما أرى إيمانك بأن الجيش مكانٌ جيدٌ لك استمرُ بالإيمانِ بأنه مكانٌ سيءُ لي وكلٌ منا يسعى وراءَ ما يُؤمِنُ به.. حتى لو رأيتُ في نهاية طريقي موتًا أو انتحارًا فلن أُمانع لكن ليس قَبل أن يحمِل معنى.. أتظنني ضعيفة لدرجة أن أنتحبَ باكية وأفر من الجيشِ أو أحاول قتل نفسي؟! سأقتل مَن أجبروني على هذا المسار قبل أن أقتل نفسي!

الثقة التي غمرتها فجأة وهي تتحدثُ عن القتلِ جعلتني ارتعش لدى ذلك غُمرت الفتاة بنوبة ضحكٍ مفاجئة وهي تردف لي:

ـــكُنتُ أمازحك أيها الجبان، مَن مِنا لم يرغب في الانتحار يومًا! لكن الضعفاء فقط هم من ينفِذون!

ـــمَعكِ حق..

كنتُ أود بشدة لو كنتُ أنا مَن قاطعَ كلماتِ ذات العيونِ الخضراء لكِنَّ الصوتَ الذي تحدث بجدية مفرطة وبقوة لم يكن إلا صوتَ لوثيار ألفرين الذي لن يفوتني تمييزُه مطلقًا، هذه بالذاتِ لحظة سيئة لظهورِه لا لشيءٍ إلا لأن سفينة هارولد ليست مستعدة للإبحارِ بعد!

ـــأيها القائد لوثيار..

قُلتها وأنا أُشاهده يستل نصليه اللذين كان يحملها ويرسم ابتسامة شديدة القسوة جعلتني أتقدمُ تلقائيًا لأحجبه عن ياسن وأجعلها خلفي، هي التي لا زالت تحتَ تأثيرِ الصدمة لا تنطقُ بحرف

ـــاسمعني لبرهة، لقد غادر هارولد كاستل الميناء بالفعل ومهما كان ما تنوي فعله فلا علاقة لياسن بالأمر، أنا من ستحاسبه!

ـــرائع..

قال هامسًا ثم واصل كلماته:

ـــتحميها خلفك رغم ادراكك أنها أقوى منك وتعترضُ طريقي رغم ادراكك أنك أنت عديمُ السحر لن تكون ندًا لفارسٍ ملكي يمتلك نوعين من السحر.. كذلك أرى أن أمركِ يا آزورش غريب، لم أطلب منك أن تساعديه هذه المرة وأنتِ الآن بصفه ضِدي! إذا غضضتُ الطرف عن اعتراضك هجومي الذي كنت سأوقفه به سابقًا..

مِن وقع كلماتِه القاسية ألقيت نظرة بطرفِ عيني لألمح تعابير وجه ياسن، عيناها المتسعتانِ وفمها المفتوحُ قليل الشيءِ لا ينمانِ إلا عن صدمة كبيرة للغاية وضَحِك قائدنا عقبها وهو يردف:

_فلتبقيا هكذا دائمًا، ساعديه يا ياسِن حتى لو كانت حياتُك هشة ومعرضة للخطر.. قد أكون أنانيًا لكن لا يسعني فعل شيء..

هكذا كانَ السيفُ بيسراه يقطع الهواءُ ويطيرُ نحوي لألتقطه متسائلًا حقًا عما يُخفيه تصرف لوثيار غير المَفهومِ هذا لكن التوضيح جاءني سريعًا.. سريعًا جدًا لما قال ألفرين وعيناه اللتانِ تحملان زرقة السماءِ الخفيفة تشتعلانِ حماسة وهو ينطق لي:

_نزالٌ عادلٌ بيننا يا إدوين، لن استعمِل سحري وسنتقاتلُ بهذه السيوف الحادة، إما استسلامُ الخاسرِ أو موته والنتيجة كذلك عند فوزك تذهبُ وشقيقك وابن فوكالت في أمانٍ وسأُتلِفُ كل ما قد يعرضكما للمحاكمة، في المقابِل إذا ما فزتُ أنا فستنفِذُ طلبًا صغيرًا لأجلي يخصُ عائلتي..

_أنت غريب!

قلتُ ثم عدلتُ وقفتي مركزًا محاولًا قدرَ الإمكانِ أن أشد من أزرِ جسدي المرهق من الركضِ وعَدَمِ النومِ طيلة الليل، الكثير من عمال الميناء كانوا يراقبون من على بُعدٍ غير حاملين لنية التدخل في قتالنا لا لسببٍ إلا لأنَّ شارة لوثيار وملابسه العسكرية تُظهرُ أنه فارسٌ ملكيٌ خطير.

_سيكون آزورش الحكم.

قال عائدًا مجددًا لمخاطبة ياسن كأنها صبي وقد امتثلت الفتاة للأمر ووقفت بعيدًا توارى رجفة خفيفة علت يديها وتوترًا أرهقني كثيرًا، لا يفترضُ بكلماتِ لوثيار أو أفعاله أن توترها ولا يفترضُ بقتالنا أساسًا أن يكون على مرأى مِنها.. إني في غاية الأسفِ لتوريطي إياها في وسط هذه الفوضى وجعلها رغم ما ذاقت من مصاعب كافية تمر بنوبة التوتر هذه..

حمل كلانا سيفه مُتأهِبًا.. بدأت ياسن العد التنازلي من الثلاثة ولدي مجيء الواحِد المُنتظر همستُ لياسِن بكلماتٍ سمعتها ثم ركضتُ نحو خصمي الباسِم..

_أنا آسف لأنكِ تتعرضين لهذا..

في وسط البرد الذي يُلقي به النهر باتجاهي جاعلًا جسدي المُتعَبَ يرتجف تحت المعطف الخفيف حاولت بقدرِ الإمكانِ التركيز على نزالٍ مهمٍ كهذا، السيفُ الذي حملتُه بقوة كبيرة آلمت كفى قد صمد بكفاءة أمامَ أول صدامٍ له ضد لوثيار الذي أشرق بابتسامة مُستمتعة خالفت شخصيته المُتحفظة، ومن بين كل ضربة يضربها كانَ يُثرثِرُ معي كل حينٍ بعباراتٍ لا تُناسب موقفنا حقًا!

_هل جننت؟

قُلتها بنفاد صبرٍ ريثما ألتقطُ أنفاسي بينما استقامَ الفارس الملكي ونقل سيفهُ نحو يسراهُ وهو يردف:

_كلا لكن الدردشة لن تضر..

_ليسَ عندما أحاولُ التركيز على هزيمتك، أنت تُشتتني! ما خطبُك اليوم؟ إذا ما أردت القبض على هارولد فلن تحتاج إلى قتالي أصلًا!

_آه..

همس فقط ردًا على كلماتي الغاضبة ثم عاود التحرك نحوي وهو يستخدم سيفه بيسراه هذه المرة، المرة الوحيدة التي علمت فيها أنه يستطيع استخدامَ كلتا يديه للقتال!

كانَ من السيء لي أنه اخفض جسده عندما لم أتوقع ذلك وتمكن سيفُه من خدش جزءٍ صغيرٍ من معدتِي في جرحٍ لم يكن يؤلم ليوقفني لكنه كان سيكونُ كذلك لو لم أتراجع بسرعة نحو الوراء، بحلولِ الوقت الذي حظيتُ فيه بثلاثِ خدوشٍ من نصل لوثيار على ذلك المنوالِ أدركتُ أنني لا أُقاتِله بجدية بالرغم من أهمية الأمر، لم أستطع التوجه نحو لوثيار

بنية القتلِ أو الهزيمة وقد كان عليَّ إذا ما وددتُ تجنب خروجي باكيًا أو مرتعدًا كما حصل في أول معركة لي أن أركز، أعمل بجدية وأُبعد كل مشاعرٍ بداخلِ صدري.. أن أُلقي ورائي كل احترامٍ أو صداقة أو تقديرٍ حملته تجاه لوثيار.. وكُلَّ خوف!

بدى لي أن الهواء الذي عبأتُ رئتاي به طامعًا قد مدني بما يكفي من الأكسجينِ للتركيز؛ غدت حركاتي أكثر سرعة وقد اتجه نصلي نحو عنق لوثيار مباشرة، كان مكشوفًا وسيفُه يتجه نحو خاصتي للصد لكِنَّ عكس طريقة امساكي بسيفي فجأة من القطع إلى الطعنِ والنزول مباشرة نحو استهدافِ المعدة قد حمل مفاجأة سيئة للفارِس الملكي حتمًا، لم يكن لديه وقتٌ لعكس مسار سيفه أخيرًا ولم يتبقى لديه خيارٌ إلا رميُ جسده للخلف.. عندها اندفعتُ ظننًا مني أنني قد تمكنتُ منه وأنه قد أخطأ إلَّا أنَّ سيفه الذي التفَّ قاصدًا بحافته المدببة مستهدفًا جانبي الأيسر قد باغتني بحق، لا وقت لدي للصد أو المراوغة وكل ما أملكه هو كلية ستُثقَب ومعركة خاسِرة، الآن أُدرِكُ أنني لم أقتل الساحر الظلامي ذاك إلا بمعجزة وأنَّ الجميع سواي علموا ذلك.. كما أنهم يدركون أن ترقيتي لمنصبِ فارِسٍ ملكي ما هي إلَّا سيرٌ وراء رغبات لوثيار الذي أرادني مُساعدًا له لسببٍ أجهلُه.. في لحظتي تلك لم أفهم ما الذي قد ضربني فوق كليتي بقوة حتى طُرِحتُ أرضًا وإنما غُمرتُ بنبضِ قلبي المُتسارِع بشدة وبنفسي الذي بالكاد أخذته، عندما جثى لوثيار فوقي وهو يرفَعُ سيفه للأعلى ليهوي به في معدتي أدركتُ أنه لم يغرسه فيَّ قبل قليلٍ وإنما أداره ليضربني ويسقطني فقط بالمقبض في ضربة غيرِ دموية مطلقًا.. والآن أغمضُ عيني مُستعدًا لتلقي ضربة مميتة، لقد قال لوثيار أنه إما الخسارة والاستسلامُ أو.. الموت.. وأنا منذُ أولِ لحظة اندفعتُ فيها بغية مساعدة صديقٍ عزيز فقد جهزتُ نفسي لألقى الموت..

"الصداقة بالنسبةِ لي ليست اسمًا، ليست ضحكًا أو مزاحًا.. إنها توقيعُ عقدٍ مع الموت منذُ اللحظة الأولى.. عقدٌ يُسمى الفداء"

"أدركتُ أن أسرتي كانت مهمة دائمًا بنفس قدرِ حُلمي وهدفي، والآن أُدرِكُ أن الأصدقاء مهمون كذلك بنفسِ القدر"

لَكِنَّ السيف الذي انتظرت أن ينغرسَ في جسدي.. لم يُغرس مُطلقًا!

ركزتُ كل قوتي لأرفع سيفي مجددًا لطعنة لوثيار، بموقعه الذي كان يمنحُه أفضلية الجاذبية وموقعي الذي جعلني أواجه كلًا مِن لوثيار والجاذبية أقررتُ أني قاومتُ الطعن بشراسة.. ياسن التي جاءت راكضة نحونا قد يئست من دورِ الحكم وحاولت إيقافنا وثنينا عن قتالِنا صارخة لكنّي ولوثيار قد أبينا الاستماع لكلماتِها، ليس تقليلًا من شأنِها وإنما رغبة من كلينا في رؤية مَن سينحرِفُ سيفُه عن مساره.. وأخيرًا وبعد جهدٍ جهيد غمرني الأسفُ لما مال سيفي ثم تصدع وفي غضونِ لحظاتٍ صار حطامًا.. طار سيفُ لوثيار شاقًا الهواء نحو صدري تحت تأثير قوة صاحبه وقد صاحت ياسن قلقة خائفة بكلماتٍ لم أسمعها.. انتظرتُ موتي ونهايتي في قصة لم تكتمِل، تحسرتُ على عائلتي التي لم أنعَم بها وعلى الجيش الذي تمنيتُ لو أخدم فيه لوقتٍ أطوال.. ليس لأن القتل ممتعٌ أو لرغبة مريضة فيَّ تواقة للحرب وإنما لأستطيع إنقاذ أكبر عددٍ ممكنٍ من الضعفاء.. أردتُ أن ينقذ العاديُّ أشخاصًا آخرين ويكون ذا فائدة في حياته..

لكن كما قلتُ سابقًا السيف الذي انتظرت أن ينغرسَ في جسدي.. لم يُغرس مُطلقًا!

حرف لوثيار مسار نصله ليشق الأرض قرب رأسي وأفلته مُرهقًا، ابتسم لي ثمَّ طرح بجسدِه على الأرضِ بقربي وكلانا يلتقطُ أنفاسه بصعوبة لاهثًا، كانت فكرة أن يقومَ لوثيار بقتلي غريبة وعصية على التصديقِ بالأصل وقد أثبت قائدي اليومَ أنه غيرُ قابلٍ للفهمِ مطلقًا هو وتصرفاتُه..

ـــيا إلهي أنتما بخير ؟!

صاحت النائبة آزورش فلم أجبها من بينِ أنفاسي المتقطعة وإنما رفعتُ كفي أن نعم فحسب.. لا أستطيع أن أنكر في النهايةِ أنني خسرت هذا النِزال وأن لوثيار لم يكن جديًا منذُ البِداية!

ـــهل ستُخبِرُني بمناسبة هذا أم ستصمُت؟

قُلت وعيناي معلقتانِ على الغيوم التي تجرى بسرعة وسط الفراغِ الأزرق..

ـــأستطيع تخمين أنَّ عيني بلونها الأزرقِ النادر تجعلانِك تكادُ تجزِمُ أن لي نسلًا من فاري الملعونة، أليس كذلك؟

ـــما دخلُ هذا بذاك؟

ـــحسنًا..

صمت لوثيار ثم ضحك رويدًا وهو يقول:

ـــلا شيء أردتُ أن أخبرك شيئًا أخيرًا فحسب..

ـــإذًا؟!

ـــإذًا فاري.. المدينة المشهورة في كتابِ "ليريت كواي" حيثُ وصفها الكاتِب التاريخي "راندل إيثيال" بأنها مدينة غامضة تمتلِكُ إطلالة مرعبة حقًا عندما تنظر إلى سمائها فوق البحرِ الأزرق.. تمامًا إن نقطة التقاء الأزرقينِ ببعضيهما قد صبت لونها في أعينِ سكانِ فاري فبات نادرًا لأعينهم ألا تكون زرقاء فاتحة وفي أحيانٍ كثيرة مرعبة هادئة، الكاتب التاريخي راندل كان يحب الأساطير بالأصل ولذا فإنه قد عزى زرقة تلك العيون إلى لعنة تسبب بها الشياطينُ قبل سيطرة الملك زاهار الموحد، قال راندل أن الشياطين سحروا كل مَن في فاري حينها وحولوا العيون إلى ذلك اللون لكي تستطيع أن ترى دربَ الموت وترشدهم إليه لكن زاهار لما طرد الشياطين بقوته وأقام الحاجز كُسرت التعويذة والأسحار التي أذت أهلي فاري.. على الرغم من أنها ظلت ملعونة ببقايا عيونٍ تحمل الزرقة والرعب والموت البعيد لكل مَن يحدق فيها طويلًا..

الآن إنَّ الجميع تقريبًا يتفق على جمال تلك الأعين الزرقاء لدى كل شخصٍ قابلوه خارج فاري لكن أي قدمٍ فور أن تطأ تلك المدينة يتحول كل شيء إلى سوء.. حتى الأعينُ الزرقاء الجذابة تغدو خانقة وأكثر ظلامًا، لذا صار وصفُ اللعنة ملاصقًا لمدينة فاري فقط عبر

الأساطيرِ لتصبحَ في أذهان الجميع فاري الملعونة.. أتدري يا إدوين؟ هذه طبيعة المكانِ الذي ترعرعتُ فيه..

صمتٌ ثقيل، حديثٌ غريب وتتمة لم أكن أتوقعُها..

ـــوالداي كانا بسيطينِ يسكُنانِ أطراف فاري عندما كُنتُ في الثانية عشرة من عمري، والدي الذي اعتاد على الذهاب للصيدِ دائمًا قد تراكمت عليه الديونُ لما قل صيدُه ولم تعد مياه البحر القريبة تُقدِمُ الكثير لذلك فقد عزم على الإبحارِ بقاربه أبعد وأبعد بغية كسبِ الرزق وفي ذلك اليَومِ تحديدًا أبحرتُ معه لمساعدته، أنا وهو وقاربٌ خشبي صغير.. يومها حدثني والدي عن شيءٍ لطالما فكرت فيه بعدئذٍ، أفكر فيه حتى الآن وكل يومٍ يا إيفان! لقد قال لي وهو يُلقي شبكته أنَّ عيني عندَ ولادتي كانتا حالكتينِ أكثر من سماءِ ليلٍ بلا نجوم على عكسِ عينيه الزرقاوين كعيني أمي وكل أجدادي! لحظتها لم أفهم ما يحاولُ والدي قوله لكنني فورَ أن رأيت نظراته الدامعة وهو يمدُ كفه ليتحسس وجهي قائلًا أن عيني تحولتا إلى الأزرقِ الفاري عندما بلغتُ الثانية من عمري وأنَّ ذلك حسب أساطيرِ ليريت كواي لا يعني إلا رؤية الموت.. يعني أنني المختار لتجسيدِ اللعنة ورؤية الموت! تمامًا كما أراد الشياطين الأوائل اللذين ألقوا اللعنة على فاري..

وقتها صُدِمتُ وشلني كل حرفٍ نطقه والدي وتساءلتُ فقط عن وجهه الباكي، عن مقدارِ الألمِ الذي يختزِنُه قلبه هو ووالدتي لكونِ ابنهما الوحيدِ مطابقًا لمواصفات لعنة شديدة القِدَم وكذلك للمصير المجهول الذي قد ينتظِرُ هذا الابن.. يومها أيقنتُ أن والدي أراد حمايتي بكل ما يستطيع لكنه كذلك لم يستطع البتة؛ أتت عاصفة هوجاءُ من حيثُ لا أدري وابتلعت قاربَنا الصغير المُتهالِك وحطمته وسط صخورٍ شديدة الصلابة! غمرني الماء ولم أكن أستطيعُ السباحة ولولا أن والدي استجمع قواه وحافظ على هدوئه وهو يربطني مستخدمًا وشاحي على قطعة خشبية من بقايا قاربنا المُتحَطِم لكنت قد مثلتُ أمامك في قبر.. والدي الذي أنقذني جرفته المياهُ الخارجة عن السيطرة بينما نجحت الخشبة التي رُبطتُ عليها في البقاءِ طافية لمدة أجهلُ قدرها.. عندما فتحت عيني في المرة الأولى كانت النجوم تلمعُ وسط سماءٍ مسودة رفقة البدرِ المكتمل وقد كان جسدي الذي يئنُ بكل جزءٍ

فيه غير قابلٍ للتحريك قيد أنملة، عندما فتحتُ عيني للمرة الثانية كانت شمسُ منتصفِ النهارِ الحارقة تشع بقوة في سماءٍ بلا سحب.. أما في المرة الثالثة فقد كنت أستطيعُ الاحساس بذراتِ الرملِ الرطبة تلسع بشرتي وبالبدر المكتمل مرة أخرى يُلقي بنوره عليَّ.. أتعرفُ أين قد أوصلني الموجُ يا إيفان؟ أتعرف؟!.. لقد كنتُ طفلًا في الثانية عشرة من عمره بوعيٍ شبه مسلوب مستقرًا على الجانب الآخر من الحاجز.. على الجانب الخاص بالشياطين..

ــرباه! أذهبتَ إلى مملكة الشياطين؟!

صِحتُ ثم استقمت جالسًا بفزع.. إن كان ما يقوله لوثيار صحيحًا ألا يعني هذا أنه ناجي من حادثة مروعة؟ أنه أول بشرى قط يرى مملكة الشياطين؟ أنه الأول منذ قرونٍ الذي يتعامل مع الشياطين؟ أنه العائد بمعجزة أجهلُها!

ــكيف عُدت وماذا حدث معك؟

سألته بتلهُفٍ فعبس بجدية كاملة وهو يقفُ بسرعة نافضًا عن ملابسه الغبار ويرفعُ ببطءٍ كم قميصِه الطويلَ ليريني شيئًا جعلَ شعر رأسي يقف وهو يردف:

ــأسئلة سأُجيبها فيما بَعد يا إيفان، أمَّا الآن فهناك ما سأتعاملُ معه على شرطِ أن تنفذ لي وصية سأتركها عندك.. وصية أخيرة!

ــرباه!

تلك اليدُ التي أظهرها الأصهبُ تحت معطفه كانت شديدة السواد، بدت كما لو أن بها حرقًا سيئًا ومتفحمًا وقد برزت العروق المسودة كثيرة ومتشابكة تَحت الجلد بروزًا مُرعبًا، كانت يد لوثيار اليمنى في حالة مزرية مع هذه الإصابة التي لن يقنعني أحدٌ أنها تندرِجُ ضمن مسمى "الإصاباتِ الطبيعية"..

ــليست حرقًا..

همس القائد ثم واصل مبتسمًا بألم:

_ليست إصابة في معركة ولا شيئًا من هذا القبيل..

من الجانب البعيدِ للميناء حيثُ كان العمال يشاهدون بدون فهمٍ أو إطلاعٍ على ما يجري استطعتُ رؤية هارولد الذي كان من المفترضِ به أن يكون في السفينة الآن يُهرع بالركض نحونا مذعورًا لكِنَّ لوثيار الذي بدى مركزًا جدًا مع كلماتِه قد واصل ما كان ينطق به..

_هذه لعنة وضعها عليَّ ملكُ الشياطين، لقد أصبحت سوداء وشديدة الإيلامِ منذ بضعة ساعاتٍ مما يعني أنه في هذه اللحظة.. سقط الحاجزُ يا إيفان.. لقد سقط الحاجز الذي وضعه الملك زاهار الأول والذي يفصلنا عن مملكة الشياطين وهذا الختم الذي في ذراعي هو فقط ما سيستطيعُ إغلاقه مرة أخرى.. لقد حذرني ملك الشياطين من أن هذا الختم على يدي رمزُ لعنة ولن تتوقفَ إلا إذا كنتُ على جانبهم من الأرض، لكنني رفضتُ وأصابني الغرور.. هربتُ منهم وعدت إلى جانبنا آملًا في دفءِ العائلة مجددًا بسخافة حتى أنني تزوجتُ وأنجبت، أتدري كم أخشى على طفليَّ من هذا المصير الذي أواجِه؟ خاصة أمايا التي تحمِلُ عيون فاري هادئة الزرقة، أخشى عليهم كما خشى والدي علي.. الآن هذه وصية يا إيفان، وصية أخيرة.. لقد أبعدتُ زوجتي وطفلاي إلى قرية نائية بعيدة حيثُ آمل أن يكونا بعيدينِ عن كل ما يحدث من فوضى ودم.. سيكبرانِ دون أن يعرفا من كُنتُ حتى لا يهلكهما مصيري.. سيحتاجانِك يومًا ما يا إيفان وعندها آملُ أن تظل كما أنت، أتعلم أن قضية روسيل قد أُغلِقت منذ عثرنا على جثته لكنني جعلتك تعتقد أني راغبٌ في اعتقالِ هارولد حتى بدون إطلاع آزورش على الحقيقة فقط لأجلِ اختبار مدى وفائك؟! أنت الذي لم تتردد في تقديمِ حياتك دفاعًا عن رفيقك، الآن أجزم أن طفلاي سيكونانِ بمأمن.. اعتني بهما جيدًا أيها الثائر.. خاصة طفلة فاري..

_الشياطين!

صاح هارولد بصوتٍ مُرهقٍ وهو بالكادِ يستطيع الوقوف لما أدركنا أنا ولوثيار، ياسن التي لم تبعد عنا خطواتٍ كثيرة أقبلت لتسمع الأنباء.. لم تَسمع..

_لقد رأيتهم.. أتتني رؤيا تخبرني أنَّ الحاجِز قد سقط! الشياطينُ على أرضنا وأرضِ آيريا!

الفَصلُ الثانِي عَشر والأخير

الحاجِزُ الساقِط

لم أتخيل يومًا أنَّ رينيلي الهادئة الآمنة المُحاطة بأكثر الحراسة قوة في المملكة سترتفِعُ فيها أصواتُ صافرات الإنذارِ بهذا الشكلِ المُفزِع، في غضونِ نصف ساعة كنتُ أجلسُ رفقة ياسن ولوثيار وأربعة فرسانٍ ملكيين آخرين رفقة نوابِهم إضافة إلى كُلِ قويٍ مُهمٍ يتواجدُ في العاصمة، الملك كان جالسًا على أول صفٍ بالقاعة بتعبيرٍ عابس للغاية والساحرُ الملكي "لانس غرن" يجلسُ على يمينِه، أما الرجلُ الذي يُعَدُ الأقوى في مملكتنا والذي دائمًا ما يذهبُ إلى الغاباتِ ليتدرب ولا يُضيعُ وقته بأي مناسبة اجتماعية قد كان اليومَ حاضرًا بتأهب ولأولِ مرة في حياتي رأيته..

"جون سيفيل" قائد الفرسانِ الملكيين نادرُ الظهور والبطلُ الذي أمضى ثلاثينَ عامًا من الخدمة العسكرية بقوة، كانت أفكاري المضطربة ترجحُ أن مستخدمُ سحرِ الأرض الذي يقتلُ كل عدوٍ أمامه والذي قاد اجتماع اليومِ الطارئ هذا سيكونُ مفتاحنا إذا ما أردنا النجاة والنصر..

_حسنًا..

بدأ القائد سيفيل كلمته ويده القوية تقبضُ على سيفه باضطراب وهو يقفُ على منصة القاعة ويردف:

_يا حُماة الوطنِ إننا اليومَ نشهَدُ وضعًا لم يسبق له أن حدث، اختراق تعويذة الحاجز قد بدأت من حدودِ آيريا تدريجيًا حتى إنهار الحاجِزُ ضمن حدودنا وخُرِق، موقع الخرق الذي يتدفق منه الشياطينُ حاليًا هو خمسون كيلومترًا في الشمال الشرقي للمدينة الجنوبية، أي بينها وبينَ "إينور"، الآن سقط جيشُ المدينة الجنوبية بقيادة خمس فرسانٍ ملكيين ولا زال جيشُ إينور صامِدًا بصعوبة، كذلك كل القرى الحدودية قد سقطت..

أما الآن فلن يبقى جنديٌ في رينيلي وشمال البلادِ وسندفعهم جميعًا نحو الخطوطِ الأمامية.. إن ما مجموعُه مئتا ساحرٍ نوراني لا زالوا يحافظون على بقية الحاجز في "أبراجِ الحراسة" ويحمون أنفسهم من بطش الشياطين التي تحاوطهم.. علينا إنقاذهم قبل أن يُهلكوا تعبًا أو قتلًا وإلا سيسقط كل الحاجز، والفرقة الأولى بقيادة الفارس الملكي لوثيار ألفرين ستتوجه

نحو أبراجِ السحرة على الترتيبِ لتحميهم أي ستكون أكثر من يخترق ويغوص ضمن صفوفِ العدو، أمن اعتراض؟

_كلا حضرة القائد!

صاح لوثيار بقوة وواصل قائدُه:

الفرقة الثانية بقيادة فارسها الملكي ستتوجهُ نحو حدودِنا مع آيريا لتقفلها وتحميها، وستنقسمون إلى فرقتين ستخترق إحداكما الحدود لتساند آيريا في خطوطها الأمامية وبرفقتكم مئة ساحِرٍ سينضمون إليكم..

_لكن يا سيدي!

اعترض الفارسُ الملكي المعني بالأمرِ على كلماتِ سيفيل ثم برر اعتراضه:

_آيريا عدوة والأولى لنا أن نتركها تسقطُ على يد الشياطين.

فرد عليه قائدُ الفرسانِ الملكيين قائلًا:

_وبعد أن تسقط آيريا نواجه غزو الشياطينِ على جبهتين بدلًا عن جبهة واحدة؟! سندعم آيريا ونرسل سحرتنا ليغلقوا نقطة اختراقهم ويصلحوا الحاجز لكي نضمن سلامة بلادِنا..

أخذ قائد الفرسانِ الملكيين ضخم البنية نفسًا عميقًا ثم واصل حديثه:

الفرقة الثالثة بقيادة فارسها الملكي ستتوجه نحو مدينة إينور لمساندة جيشها وردع الشياطين.. الفرقة الرابعة ستنضمُ إلى جيشِ الدعمِ الذي سيصلنا من مملكة آرونيا وستذهب في مهمة لتحريرِ المدينة الجنوبية التي سقطت، الفرقة الخامسة ستكونُ خط الدفاع الأخيرِ عن رينيلي وستبقى هُنا..

ثبت جون سيفيل دبوس الجيش خاصته _السيوفُ الثلاثة المتعاكسة_ جيدًا فوق سترته وأردف بقوة:

_ملكُنا سيساند فرقة الدفاع عن رينيلي بنفسه لكنها ستبقى تحت إمرة فارسها الملكي، الساحر الملكي لانس غرين سيرافقُ فرقة لوثيار ألفرين بينما سأنضمُ أنا إلى فرقة تحريرِ المدينة الجنوبية.. ومن دونِ أي تأخر سنخوضُ معركتنا هذه الليلة!

الكلماتُ التي ألقاها قائد الفرسانِ الملكيين كانت تقسيمًا ممتازًا لأكبرِ خمسِ قوي في كوتسيريا، الكتائبُ المتوزعة على كل المُدِنِ الكبيرة ستقسمُ جنودها لنصفين.. نصفٌ يدعم الفرق الخمس ونصفٌ يبقى ليدافع عن مدينته الأم..

كانَ الوصولُ إلى الحدودِ سيستغرقُ يومينِ إذا ما عدوت بحصانك مُسرِعًا لكننا كُنا تحت ضغط عامل الزمن ولا نمتلك يومين، الجنوبُ كان ينهارُ تحت عجزِ حُماتِه ولذا فإنَّ الجيش الضخم الذي خرج به لوثيار تحتَ قيادته اليوم لم يكن سيتوقفُ حتى لالتقاط أنفاسه، قد تتوقفُ الخيول عن الركضِ وتسقط ميتة، قد يُشل نص شبانِنا البالغ عددهم ثلاثة عشر ألف جندي ويسقطونَ صرعى من رعبهم، قد نخسر أرواحنا بِكُلِ سهولة في معركة ضد عدوٍ لا نملِكُ عنه حتى سجلاتٍ قديمة تُفهِمُنا مقدار قوته لكن الشيء المشترك الذي اشتعل بقلبِ كُلِ جندي من كوتسيريا تقدمَ على ظهر خيله اليوم رغم كل شيءٍ لم يكن الخوفَ فحسب وإنما كانَ الرغبة في الحياة.. والكِفاحَ المستميت لأجل سلامة كل عزيزٍ عليه..

في غضونِ ساعاتٍ قليلة فحسب كنتُ أركب على ظهرِ حصاني وسماءُ العصر تخفتُ زرقتها تحت وطأة الليلِ المقترب، على يميني النائبة ياسِن التي ترفع شعرها البني وتحمِلُ بعينيها شديدتي الخضرة نظرة الجدية وتشدُ قبضتها على سيفيها المختبئ في غمده بينما يعدو حصانُها مُسابقًا الريح.. أمامي كان لوثيار ألفرين يتقدمُ مسرعًا ولا توترًا يخالجُني أكثر من توتري لدى رؤية يده اليمنى المُغطاة بالسواد كيف أنها بالكادِ تتحرك كما لو أنها شُلَّت وهو رغم كل ذلك يصِرُّ على إخفاءِ الأمر.. وخلفي كان جيشٌ قوامه آلافُ المُقاتلين ينطلقونَ مسرعين..

"قبلَ أن أُغادِرَ رينيلي.."

فكرتُ وأنا أتأملُ السحب الهادئة البعيدة عن ضجة الأرضِ وخطرها..

"فُتِحَ بابُ مساندة الجيش لكلِ مَن يستطيعُ حملَ السلاح، أليكس ولوين ذهبَا ضمن الفريقِ الطبي إلى إينور حيثُ لا زالت المدينة التي تعاني المناوشات صامدة مع كثيرٍ من الجنودِ المصابين، آرثر وجايد تطوعا لحملِ السلاح وأحسبُ أن آرثر المُتمكن في سحرِ الأرض سيكونُ مفيدًا للجيش وسيذهبانِ ضمنَ حرسِ حدود آيريا.. أما هارولد فإنه قد صُنِف ضمن الفرقة في الخطوط الخلفية التي ستحمي العاصمة رينيلي وأنا الوحيد بينَ معارفي الذي سيقصِدُ الخطوط الأمامية.. أخشى أنني الشخصُ الخطأ وأنَّ اختيار شخصٍ أكثر كفاءة لكانَ سيكون أمثل.. لكن هذا ما أردتُه على أي حال.. عاديٌ يحمي الضعفاء..

لم تتوقف الأحصنة طيلة أربعة عشرة ساعة متواصلة عن الركض إلا من دقائق تُسقى فيها الماء، كانت مُتعبة ويكاد كل واحدٍ منها يهوي أرضًا بحلولِ الوقت الذي أطلت فيه غابة الجنوبِ الشاهقة أمامنا عند أواخِر الليل، كانت الأراضي المُحتَلة من قِبَل الشياطينِ تبدأُ من عمقِ هذه الغابة وقد عرقل جيشُ الجنوبِ تقدم هذهِ الوحوشِ بشجاعة وثباتٍ حتى اللحظة وإلا لكانت كوتسيريا قد سقطت أجمع في ساعتنا هذه..

لوثيار الذي تقدمتُ بحصانِي لأجري معه محادثة قصيرة لدى دخولِنا أطراف الغابة لم يبدو بأفضلِ أحواله، كان وجهه يتصببُ عرقًا رغم برودة الجو ويسراهُ تشد على ساعده الأيمن بقوة كما لو أنه يحاول اقتلاع يده من مكانها، كان يتألَّمُ بشدة وقد جاهد ليخفي ذلك لكنني أنا وياسِن كنا نعلم ما يعانيه وقد حثتني نائبتُه على التحدث معه.

_أيها القائد عليكَ التراجُع عن مقدمة الجيشِ فقد تحتوي هذه الغابةُ على فخاخٍ عديدة.

_لستُ مَن يتراجع يا إدوين..

_لوثيار..

همستُ مناديًا إياه بخفوت.. باسمه لأول مرة وأنا أُردِف:

_أنت تتألم وعيناك جاحظتان تخبرانِ أيًا كان أنك لست على ما يُرام.. وذِراعُك..

قاطعني لوثيار بصوتٍ حاسمٍ لينهي كلماتي:

_ذراعي بخير! أنا بخير!

لكن كلماتي كانت أعند من أن تنتهي هُنا..

_لست كذلك.

_إنه هنا.. أستطيعُ الشعور بوجوه.. الملك..

همس لوثيار بصوتٍ منخفضٍ تاركًا إياي غير قادرٍ على فهم شيء، كان كمن يهذي هذيانًا غير مفهومٍ جعل قلقي يتصاعدُ تباعًا، من حولنا ظلت غابة الجنوبِ تغدو أكثر ظلامًا كلما غصنا بداخلها أكثر فأكثر وقد كانت مكانًا سيئًا حقًا لخوض قتال، هي تحجب جل ضوءِ البدرِ وتتمتع بضيقٍ خانِقٍ لا يسمحُ للمرءِ أن يتحرك بحرية ولكنها في نفس الوقت النقطة الأخيرة التي نستطيع ردع الشياطين عندها دون إلحاق الأذى بالمدنيين، إما هنا أو لا..

لم يمضي وقتٌ طويلٌ على دخولِنا إلى الغابة الكثيفة وعلى الرغمِ من ذلك فإن موجة من الطاقة السحرية الهائلة قد انتشرت فجأة لِتَجعَل جسدي يرتجفُ كالغريق هذا كانَ حالي أنا الذي لم أمتلك سحرًا فكيفَ يكونُ حالُ جِنودنا مستخدمي السحر؟! التفتتُ خلفي فأبصرتُ فرسانًا يركبون خيولًا ضمن ثلاثة عشر فرقة منظمة وتمتد بين الأشجارِ بلا نهاية وعاودتُ النظرَ أمامي لأُبصر ما تجمدت لدى رؤيته في مكاني عاجزًا عن الحراك..

_إيفان تحرك!

صاحت بي ياسن مخرجة إياي من شرودي وشللي وهي تضيفُ بعجل:

_استل سيفَك! السَيف!

فحملتُ سيفي بكفي وأنا أترقب الهجوم.. في أبعد طرفٍ أمامنا مالت ظلالُ الغابة وامتدت مسودة لوهلة ثم تغمُرُ الصَدمَةُ مَن يحدق لبرهة ليدرك أن السواد متشكلٌ على هيئة طويلة مفزعة تقترب منا جماعاتٍ وأفرادًا.. لقد كان جيشَ الشياطين..

إن الصورة التي وصلتنا عن الشياطينِ عبر الرسومات القديمة التي تعود إلى زمنِ "الحرب الأولى" وزاهار الموحد لهي رسوماتٌ تظهر وحوشًا بقرونٍ وهيئاتٍ مختلفة وأنيابٍ مُمَزِقة.. لكنني الآن قد أيقنت أنها كانت رسومًا متأثرة بالخيال أكثر من كونها واقعية إذ أنني اليوم ماثلًا وسط صدامٍ وشيك مع الشياطين أصفُ شكل الشياطين بكلماتٍ مُسرعة مُقتضبة..

طوال القامة.. طوال اليدين والقدمين.. سودٍ بالكامِل وذوي وجوهٍ بلا عيونٍ وفمٍ أبيضٍ كما لو أنه شُقَّ هنالك بسكين.. وهم جميعًا بلا استثناء يُدَفِقون طاقة سحرٍ ظلامي هائلة للغاية!

في العتمة لم نستطع تقدير عدد العدو الدقيق لكن جيشنا كانَ سريع التأهُبِ حقًا..
مُستخدِمو سحرِ النارِ قد اصطفوا ضمن الفرقتينِ الثالثة عشر والأولى ليتقدموا ويحرقوا عددًا لا بأس به من هذه المخلوقات السائرة نحونا إلَّا أنها فور رؤيتها لشعلات النارِ قادمة كانت تراوِغُها وتتجنبُها كما لو أنها تمتلِكُ عقلًا يفهم وبديهة شديدة السُرعة..

كانت مُهمة النائبِ أن يبقى رفقَة قائِده دائمًا، يقاتِلَ على مَقرُبَة منه ويحمي ظهره كَثيرًا ولم نكن أنا وياسن استثناءً.. كنا أول من في سيلتقي الأعداء رفقة لوثيار وأول من يخوض معركة ضِدَّ خوفه ورعبِه..

لم أنسى رغبتي القاهرة في الالتفات نحو ياسِن للاطمئنان عليها لكن رغبتي تلك سرعانَ ما عَجِزتُ عن تنفيذها عقب أن أصابَني الشلل، أنفاسي صارت عصية عن الخروجِ من صدري ويداي اللتانِ تمسكانِ نصلي باتتا ترتجِفَان كورقة في مهب الريح، بدى كما لو أن الجو يصبِحُ أبرد والشياطينُ التي تتقدم تغدو أطولَ وأسود حتى لكأن الواحِدُ مِنها يكادُ يَحجِبُ القمر المكتمل، في ساعة كهذه دائمًا ما يتملك الرعب أيًا كان ويسري الخوف في عروقه مسرى الدم نفسه لكن الضعيف فقط هو مَن يهرب ويستكين.. ودعتُ الحياة الخلفي واندفعتُ نحو الأمامِ لا بقوة سِحر وإنما بضعفِ البشر الطبيعي..

طولُ الواحد من هذه المخلوقات ضعفُ طولك وأنت على ظهر خيلك لذا فإن إسقاطهم أرضًا عبر استهدافِ أرجلهم كان خطوة أساسية أحسب أن الكل قد فَهِمها!

سيفي الذي اخترق ساقي أول وحشٍ تقدم نحوي قد لوث بدماءِ هذا الشيطان السوداءِ المقرفة وقد تسببت قطرة واحدة فقط من الدم التي طارت على وجهي في ألمٍ كألم الكي بالنار من فظاعته وقتها فهمتُ قوة "سحر الدم الظلامِي" الذي تستخدمه هذه الكائنات، إنه التوأم الآخر لسحر الدم النوراني وبهذه الحقيقة صحتُ مُحذرًا:

_إياكم أن تلمسوا دماءهم السوداء!

ثم سقط الشيطانُ الذي غرستُ نصلي فيه وانحنى مُحاولًا تماسك نفسه ومن وسط اضطرابِ جوادي المذعور استطعتُ أن أفصل عنق العدو عن جسده وتلطخت معظمُ يدي بالدم الأسود حتى باتت غير قادرة على الإمساكِ بالسيف، خطأٌ تافه ارتكبتُه أنا الذي حذرت الجنود منه توًا لكنني لم أكن لأتوقف نتيجة الألم؛ التوقفُ يعني الموت..

لم استطع الالتفات لأرى حال قتالنا عامة لكنني أيقنتُ أن هذه الشياطين لا تملِكُ أسلحة خاصة فقط قوة جسدية وطولًا، دماءً حارقة كالحِمض وسحر دماءٍ ظلامي أجهل قدراته الكامنة بعد.. آه ها هو أحد الشياطينِ يُفجرُ جسده ليتناثر دمه بعد برهة فوق بضعة فرسانٍ ليرديهم قتلى فورًا، جزن دهشة أم رهيبة هي المشاعِرُ التي غمرت قلبي؟ لا أردي لكن التأهُب كان أولها..

_أسقطوهم أرضًا قبل أن يفجروا أنفسهم!

صحت مجددًا وقد امتثل مَن سمعني من الفرسان سريعًا وباتوا يقاتلون بسرعة، في السماء البعيدة حجبتِ الغيومُ الأمطارَ وهزَّ الأرضَ صوت الرعد العالي، لوثيار كان يشقُ طريقه بقوة وحيدًا وسط عدد لا نهائي من الشياطين السود مسقطًا إياهُم بسحرِ النار خاصته بينما يبتَعدُ عن الجيش أكثر فأكثر، ياسن ما عادت تُرى بعد أن حجبها الفرسانُ وأنا بات يتوجبُ عليَّ البقاءُ في ظهر قائدي لذا أسرعتُ بالحصانِ وأنا ألحق بالأصهبِ وأُسقِطُ كل شيطانٍ تطالُه يدي.

لوثيار الذي كان يقاتِلُ بيمينه ببسالة وقوة ويشق صفوف العدو قد اضطرب فجأة.. توقفت ضربات النار التي كان يُرسِلُها وأفلت نصله فجأة ليسقطه على أرض الغابة بين التراب والأعشابِ وهو يتلوى على نفسه حتى إنه كاد يسقطُ عن ظهر حصانه حينها.. عادت يده التي تحمِلُ اللعنة كما سماها لتؤلمه مرة أخرى فهي لم تبدو بخيرٍ مطلقًا طوال هذا اليوم ويبدو أن ألمها بات فظيعًا حتى بالنسبة لشخصٍ قوي كقائدي، أحد الشياطين الذين يفوقون العشرة من حوله رفع كفه العملاق مُتجهًا نحو لوثيار الذي ما أظنه عاد في واقعنا بعد الآن.. في لحظة كتلك الهرب بحياتي وتركُ شخصٍ مُحاصرٍ بالكامل كان الخيار العقلانِي الوحيد.. كان المنطق الذي فكرت فيه والدماءُ المتناثرة عليَّ تُشعِلُ فيَّ الألم الكبير.. لكن مَن يهتَمُّ للمنطق؟! مَن سيهرب ويترك فارِسًا أعزلًا بلا سلاحٍ ليواجه شيطانًا؟

اندفعتُ نحو الأمامِ بلا هوادة رافعًا سيفي لأقطع يد المخلوقِ البشع وتطير بعيدًا مخلفة شلالًا من الدم الذي لم أسمح له أن يُراق علينا إذ أنه بحلول الوقت الذي تدفق فيه على الأرض كنت قد أسقطتُ الشيطانَ جثة هامدة.. عقبها تراجعت الشياطينُ بحذرٍ إلا واحدًا منها ظل ثابتًا كالصخر بوجهه الذي لا يحوي إلا فمًا مشقوقًا أبيضًا تارة وأحمر تارة أخرى، كان هذا الشيطانُ بثباته ينوي تفجير جسده ليقتلنا بده وهذا سيء.. بل مُصيبة!

ـــأيها القائد!

صحت وحصاني يلاصقُ حصانه الذي رأيتُ أنه بالكادِ قادرًا على الوقوفِ من الإجهاد والتعب فقد كان الأخير مذعورًا مرهقًا لا أحسب أنه سيستطيع إخراج لوثيار من هنا، كان أزرقُ العينينِ يضم نفسه ويشد يمناه بقوة ولا يبدي أي تجاوبٍ مع كلماتي ولا وقت إذا ما أردتُ أن أحدثه أو أشرح له لذا فقد سحبتُه من على ظهر حصانه إلى ظهر حصاني في حركة خطرة لكنها تمثل طريقًا وحيدًا وقد كان قائدي شبه فاقدٍ لوعيه عندما استقر خلفي وبدأ حصاني الركض المضنى، بيدي اليسرى كنت أشد لوثيار حتى لا يسقط وبيميني أمسك سيفي وأهرب سريعًا بينما أراقبُ الشيطان ينفجر تلقائيًا وتتناثر قنبلة من الدمِ في الهواء والتي لحسنِ الحظِ لم تُدرِكنا!

حينما استطعتُ الالتحاق بباقي جيشنا كان عددٌ كبيرٌ من الوحوش قد لقي مَصرعه بينما تراجع ما يُقدَر بالرُبعِ مُشتتينَ هاربين فيما يدل على أن هذه المخلوقاتِ لا تتمتعُ بالذكاء الذي حسبتُها تمتلكه كالبشر أولا يعني هذا أن ملكهم الذي وضع على يد لوثيار تلك اللعنة ليسَ ذكيًا بدوره؟

استغرق الأمرُ مِنَّا ساعتينِ لتأمينِ جزءٍ كبيرٍ من غابة الجنوب الشاسعة، قاتل جنودُنا ببسالة لكن عدد مَن فقدانُهم كانوا كُثرًا، فقدنا شبابًا صغارًا قاتلوا بقوة وإن فقدهم ليجعل جسدي يرتجف من وجله! لوثيار الذي طرحناهُ على مُلاءة أرضًا قد أبى أن يفيقَ أو يتحرك وياسن آزورش طيلة ساعتينِ كاملتينِ جالسة بقربه تستخدم سحرَ الدم النوراني خاصتها علها تشفيه، لكِنَّ نظرة الحزن التي اعتلت وجهها كانت كفيلة لي بمعرفَة جوابِها الذي أملت ألا يلاحظه الجنود الآخرون، نحن مستقرون هنا ننتظر استفاقة قائدنا الذي لم أعطهم خلفية حقيقية عن ماهية إصابته فلو لم يستفق مثلًا.. لو لم يفتح عينيه كيف ستكون روحنا المعنوية؟

ـــأيتها النائبة آزورش..

قال الساحِر الملكي لانس غرين الذي رافقنا اليوم على أمل أن يقود سحرة الأبراج نحو إغلاقِ ثغرة الحاجِز، كان الساحر الملكي رجلًا في منتصف أربعينياتِه بشعرٍ أسود طويلٍ جدًا وعيونٍ قرمزية قاتمة وقد كانت رُتبتُه كما لو أنه قائدٌ لكل السحرة بالبلاد..

ـــأيُمكنني أن أراه؟

قالها وسط ترددنا أنا وياسن، كنا ندرك أن لوثيار لن يُحب أن يكتشف أحدٌ أمر ذراعه لكننا كنا متوترينِ لأن سحر ياسن لم يكن يعمل ولربما يعرف هذا الساحِرُ ما يساعدُنا به فحالة الجهلِ التي غُمِرنا فيها كانت خطرة وأنا لا زِلتُ على رأيي..

"المعرفةُ أكبر قوة"..

ـــحسنًا..

قالت ياسِن وهي تسمح لذي الشعرِ الأسودِ بالاقتراب.. جثى الرجلُ أرضًا وعباءته السوداء الطويلة غطت ما حوله من أغصانٍ وقد ركزت وأنا أفحُص تعابير وجهه جيدًا متوقعًا منه أن ينفر أو يستغربَ لدى رؤيته لحالِ ذراع لوثيار لكنه فور أن رفع كم سترة القائد ليرى مقدار السوادِ المنتشر داءً تجمَد الرجُل في مكانِه عاجزًا عن أن ينطق ببنت شفه إلا بعد برهة من شلله ألقى علينا صدمة أرعبتنا أنا وياسِن أكثر مما فعلت الشياطين..

ـــما أراه أمامي لن يعالجه طبيبٌ ولا مُستعمل أيُّ نوعٍ من السحر أيها النائِبان.. هذا السوادُ المنتشر لم يسبِق لي رؤيته قبلًا ولا حتى بين صفحاتِ أقدمِ كُتبِ السحر والتعاويذ التي أمضيتُ حياتي في قراءتِها، إنني لا أذكر رؤيته إلا في مبنى مهجورٍ على أطرافِ المدينة الجنوبية حيثُ عاش زاهار الموحِدُ ذات يومٍ ليضمن حماية حاجزه، قالت لي عجوزٌ مرت بينما أنا واقفٌ أتأملُ رسمًا قديمًا لشخصٍ شُوِّه بسوادٍ كهذا أن الرسم يعبِرُ عن شكل لعنة تُلقيها الشياطين على البشر قديمًا.. لعنة تُري صاحبها طريق الموتِ وتُري الشياطين طريق الخلاص.. إذا ما كان كلامُها صحيحًا فهذا يعني أن السيد لوثيار مُرشِد.. سيأتي أقوى الشياطينِ بحثًا عنه!

ـــرباه! مَلِكُ الشياطين هو الأقوى!

لم أستطع منع الكلِماتِ من الاندفاع من فمي لذعري فحتى الفارِسُ القوى لن يستطيعَ الاحتفاظ بأعصابٍ من حديد لكن صوت لوثيار الذي يهوى مُقاطعتي قد نطق مرة أخرى ولم أغضب أخيرًا بل غُمرتُ بالراحة لأن قائدي قد فتح عينيه الزرقاوين أخيرًا..

ـــلا أحَد سيأتِي بحثًا عني، أيها الساحرُ الملكي أنا مَن جِئتُ بحثًا عن ملك الشياطِين..

ـــأيها القائِد!

همست آزورش وهي تسنده لتساعده على الجلوس فاستقامَ جالِسًا وهو يحدق نحو جنوده الذين بالكاد كانوا يلتقطونَ أنفاسهم بعد معركة شاقة.

ـــلقد قاتلوا بينما كُنتُ نائِمًا..

_كلا!

قلتُ ثم أردفت:

_لقد قاتلت بما يكفي.

_وسأواصِل..

ابتسم لوثيار وهو ينتصِبُ واقِفًا ويترنح حتى كاد أن يسقط لولا أن سندتُه، قال لانس بهدوء:

_لا يخفى علينا أنك تحتاجُ للراحة.

_ولا يخفى علينا كذلك أنه الفجر وأن سحرة الأبراجِ يكادون يلفظون آخر أنفاسِهم وهُم بانتظارِنا، إن سقطت فسيقودُ إدوين مكاني لكن إن سقط سحرة الحاجِز فستسقُط كوتسيريا!

في طريقنا نحو الحدودِ صادفنا مجموعة صغيرة من الشياطينِ الذين أخرونا لساعة أخرى، حينها حَرصنا أنا وياسِن على أن نبقى حول لوثيار وندعمه وقد قاتلنا أنا وهي نيابة عنه تقريبًا في اتفاق غيرِ مُعلَنٍ على حمايته، بالنسبة إلى ياسن فإن لوثيار قائدٌ آمن بأخيها ودعمه وبعده دعمها هي ولم يقلل من شأنِها على الرُغمِ مِن أنها فتاة، وبالنسبة إليَّ فهو قائِدٌ غريب، هادئ وغيرُ قابلٍ للفهم في كثيرٍ مِن الأحيان وماضيه بِحَدِ ذاتِه يعدُ لغزًا، كونه ضاع حتى وصل إلى مملكة الشياطين، وهذه اللعنة على ذراعه كذلك.. وأيضًا سؤالٌ حيرني بين الفينة والأخرى..

"لماذا يهتم لوثيار بي؟ إني ضعيفٌ ورغم ذلك عينني نائبه فما الذي يراهُ يا ترى فيَّ ولا أراهُ أنا ؟!"

لوثيار بالنسبة لي بات صديقًا أكثر من كونِه قائدًا..

بحلولِ الوقتِ الذي وصلنا فيه إلى الحدودِ الجنوبية أطل برجُ السحرة الأولِ شامخًا من حوله حاجزٌ من تعويذة سحرية قوية للغاية لا عجب أنَّ الشياطينَ لم تستطع قهرها، كان برجًا من الحجارة البيضاء تظهرُ خلفه أراضٍ مُمتدة من أشجارٍ حالكة متشابكة وليبدو لعينِ المرءِ أن هنالك غشاءً رقيقًا يقفُ حائلًا للبصر، أهو الحاجز يا تُرى؟ ألا يُرى؟!

ــلن تتمكن من رؤيته.

قالت لي ياسِن ونحن نترجل من على خيولنا ثم أردفت:

ــفي الماضي جئنا إلى هُنا في مهمة وقد كان هذا الحاجِزُ الذي يتمدد لارتفاع لا نهائي يتألقُ بلونٍ أرجواني خفيفٍ إلا من مناطق شفافة تكاد لا تُبصر قيل لنا أن السحر فيها ضعيف.

ــإذًا فقد أضحى السِحرُ ضعيفًا في جميع أجزاءِ الحاجز الآن!

ــعلى ما يبدو!

كانت أبراجُ الحراسة التي تحتاجُ الدعم تتوزعُ على طولِ خمسة عشر كيلومترًا من الغاباتِ والوحوش المختبئة لكن طاقة الفرسانِ المُستخدمين للسحر قد جذبت عددًا لا يُستهانُ به من الشياطينِ إلى المعركة السابقة لذا فإنَّ المخلوقاتِ السوداء التي كانت تُحاصِرُ الأبراجَ قد قلت بشكلٍ كبير..

فكرتُ قليلًا في لوين وكيف أنه قد يكون اندفعَ نحو الخطوطِ الأمامية رفقة أليكس لإنقاذ الجنودِ المصابين في إينور، أتستطيعُ الجزم أن أليكس سيتدبرُ الأمر إذا ما واجها خطرًا محدقًا لكِنَّ لوين الذي يهاب القتال لن يكون بخير لذا آمل حقًا ألا يضطرا لمواجهة خطر، في آيريا لا بُدَّ من أن آرثر يستمتع بالقتالِ ويعتبره هواية جديدة بدلًا عن النباتاتِ السامة التي ما كان يلبث يجري عليها تجاربًا مميتة تكاد تودي بحياته وحياتنا أحيانًا، جايد بات يحظى بثباتٍ انفعالي جيد وأحسبُ أنه إذا لم يشاهِد كثيرًا من الدماءِ فسيكونُ بخير.. أما والدي وهارولد في الوطنِ فأدعو أن نستطيع إيقاف الشياطينِ هُنا حتى لا تتقدم نحوهم..

تم إيصالُ مئتا ساحرٍ وتوزيعُهم على عشرين بُرجِ حراسة على طول الحاجز وتركُ معظم الجنودِ خلفنا لكي يحموا الأبراج ويركز السحرة على عملهم، أخذنا أحصنتنا وبدأ الحاجز يتوهجُ بالأرجواني الخافت الذي بعث راحة كبيرة في نفوسِنا لدى اطمئناننا أنَّ السَحرة قد باشروا عملهم.. كُنَّا أربعة فحسب نتوجه نحو أخطر نقطة الآن في القارة بأكملها نقطة اختراق الحاجز الذي يتدفقُ منها الشياطين والتي بعد إغلاقها سنواصل أربعتُنا _أنا ولوثيار وياسن والساحر الملكي لانس غرين_ المسير حتى نلتقي بقائد الفرسانِ الملكيين قرب حدود المدينة الجنوبية التي يفترض أن تكون قد تحررت على يد جنوده حتى ساعتنا هذه.. خطتنا كانت أن نذهب بعددٍ قليلٍ لكي لا نجذب الأعداء المجهولة من الشياطين التي ستكونُ قريبة من الثغرة لكي لا ندخل في معركة لا داعي لها تضيعُ وقتَنا الثمين، الأولى كان الحاجز ثم الحاجز ثم الحاجز لمنع المزيدٍ من الوحوش القادِمَة!

_هل القائدُ بخير ؟

سألتُ لوثيار ونحنُ نسيرُ بينما الشمسُ تلمع وَسط السماءِ لمعانًا حجبته غيومٌ تنذرُ بالمزيد من أمطارِ أكتوبر، كان ذلك الشعورُ الغامض يغزو قلبي ويطعنني بشدة وقد رغبتُ أكثَر من مرة بأن أبوح به لأحَدِهم لكنني أبيتُ ذلك وآثرتُ الصمت.. لاحقًا أدركتُ أنني كان يجبُ ألا أبوح بشعوري وتشاؤمي ذاك بل أن أصرُخَ به لتحذيرِ الجميع!

ونحن سائرون كُنَّا نرى الأشكال السوداء فنتوارى خَلف الأشجارِ السامِقة بحذر ونترك مجالًا لعشرات الشياطينِ لكي تمر دون أن تلحظنا، حين وصلنا إلى النقطة التي تلاشى فيها اللون الأرجوانِي وأصبحت الأشجار الباهِتة باللونِ الرمادي بادية بلا غشاوة تحجبها، كانت هذه نقطة الثغرة التي اخترقت في الحاجز والتي ترجل الساحر الملكي لانس من على حصانه وسار نحوها عقب تأكُدِنا من هدوئها مؤقتًا وألا شياطينًا تحومُ حولها.. كان انتظار الموت أسوأ من حدوثه ومواجهة جيشٍ من الشياطين بعدد قليلٍ من البشر ليس كمواجهتهم

وسط آلافٍ من رفاقك.. وأنا بالذاتِ كنت أتراقبُ الكارِثة بإحساسٍ يغزوهُ الوَجل.. وقد حَلَّت!

_آخر تعويذة علمني إياها والدي والساحِرُ الملكي الراحِل كانت تعويذة الحاجِز، حلل السحرة الأوائلُ التراكيب التي استخدمها الملكُ زاهار وقد توصلوا مع بعض الترنيماتِ لما سأقوم به الآن لإصلاح الثغرة.. أنتم أيها الفرسانُ لم تتأهبوا ليومٍ كهذا لكننا نحنُ السحرة النورانيون كُنا على أهبة الاستعداد..

أُقسِمُ أن الطاقة السحرية التي تدفقت بقوة قاهرة بعد كلماتِ الساحر ذا العينين القرمزيتينِ كانت هائلة لتلك الدرجة التي جعلتني بالكادِ أستطيع أن أثبت فوق حصاني وقد كافحتُ لكي لا أفقد وعيي وأصبح عبئًا على الفارسين برفقتي، أخرج الساحر الملكي خنجرًا صغيرًا مليئًا بالرموزِ المُذهبة وقد سار بادئًا بتلك النقطة المشوهة عند طرف الفتحة الشرقي وصولًا حتى الطرف الغربي اللذانِ يبعدان عن بعضهما مسافة مترينِ ونصفٍ المتر، هذه المسافة القليلة التي جلبت بلاءً كبيرا! وهذا الساحر الذي فاجأنا وهو يغرس الخنجر في صدرهِ ويخطو سائرًا لتشكل قطراتُ دمه خيط وصلٍ بين طرفي الفتحة وهو يتمتم بتعاويذه ويُطلق طاقة سحره النورانِي بلا ضوابط..

_سيموت هكذا..

همستُ بأسى وأنا أرفُض ذلك فرد عليَّ لوثيار قائلًا وعيناه معلقتانِ بالمشهد:

_لا بُدَّ أن يضحي بحياتِه ليتم التعويذة.

_أرفضُ ذلك! لن أقف وأشاهد رجلًا يطعن نفسه حتى الموت! لماذا لم يخبرني أحد؟!

تقدمتُ نحو الساحر الذي كان يخطو بصعوبة مبتغيًا مُساعدته، بالنسبة إلي فإن الحياة لا يمكن تعويضها ولن أسمح بإزهاقِها هكذا هدرًا..

_حياتُه لن تضيع هدرًا..

قالت ياسن وهي تعترض طريقي حصاني بخاصتها وتحدثني كأنما قرأت ما بذهني:

_الساحِر لانس غرِن يمتلك أيضًا أسرة في العاصمة عليه حمايتُها وقد جاء إلى هُنا مثلما جاء كل جنديٍ آخر في جيشنا.. مُستعدًا ليضحي بحياته لأجل ذلك.

_لكن الجنود يمتلكون أملًا بالعودة أما هو فلا! هو متأكدٌ من موته!

_ولولا موتُه لما امتلك أولئك الجنودُ ذاك الأمل!

"أمن الصحيحُ إزهاقُ روحٌ مُقابِل مملكة؟.. نحن لم نعطي الروح لنطلب التضحية بها.."

_سيفاكُما!

قاطعنا لوثيار تمامًا في تلك اللحظة التي سقطَ فيها الساحر الملكي أرضًا بلا حراكٍ وعيناه القرمزيتانِ ترمقان الفراغ بثباتٍ ومن خلفه أرضٌ مغطاة بالدمِ ولونٌ أرجوانِيٌ يزحف في الهواءِ بغية الالتئام لكنه في النهاية لما أراد الالتئام لم يفعل بل ظلَّ فيه شقٌ يقدرُ بمترٍ كامِلٍ يصارع جانِباهُ لإقفاله دونما نتيجة.. عندها رَفع لوثيار يدهُ اليمنى لأعلى مُظهِرًا سواد اللعنة التي تُعذِبُه وقد أشعل ناره في يده حتى ظننتُ وياسِن أنه ينوي إحراقها لكِنَّ صوتًا ما من خلفِ الأشجارِ الكثيفة وراء الحاجز الأرجوانِي قد تردد صداهُ في المكانِ ناطقًا بصوتٍ عميقٍ مرتفعٍ وغليظٍ بث القشعريرة في نفوسِنا برهبة:

_لن تخدعني يا ذا العينينِ الملعونينِ فالنارُ لا تحرِقُ صاحِبها بينما ختمي يَفعل..

_أظهر نفسك يا "لوسكار فالنير" فناري تواقة لحرقِك!

رد لوثيار على الصوتِ وسيفه مسلولٌ أمامه باستعداد ومن خلفِ الحاجِزِ المُخترق ظَهَر ظِلُّ شخصٍ بهيئة بشرية يخطو على مهلٍ والريحُ من حولنا تزدادُ برودة كلما اقترب رفقة الغيومِ الرمادية التي ما عادت تترك لنا مجالًا لنُطلِقَ على الوقتِ اسمَ نهار.. الجو كالليل والشخصُ القادِمُ يَبعثُ بالموت!

_افتقدتك أرضُ الشياطينِ التي لجأت إليها طفلًا يا ذا العيونِ الملعونة.

قالها القادِمُ مرة أخرى بهدوءٍ وقد بات واضحًا لعيني لما تخطى جثة الساحِرِ المَلَكي المرمية وسط دمائِها بعدمِ اهتمام كما لو أنها ليست حياة سُلبت توًا، القادِمُ لم يكن بشريًا وفقًا لكل الشؤمِ الذي جلبه حضوره لكنني لم أعرِف ما هُو قط.. يتدثرُ بالقرمزي القاني وفي شعره سوادٌ أحلكُ من الليلِ نفسه وعيناهُ بلون البنفسجِ باردتان حادتانِ كمنجلِ ملك الموت.. مَن تكونُ يا لوسكار فالنير؟

تراجعنا أنا وياسِن لنقِف بمحاذاة لوثيار متأهِبين بسيوفنا..

ـــلن يخرج بشريٌ من هناك صحيح؟

ـــلربما شَيطان؟!

خمنتُ ردًا على مقولة ياسن وقلبي يرتجف لسوءٍ أشعُره يغزوني بمهل ويخدر أطرافي وفي لمحة عينٍ الرجلُ الذي كانَ يبعُد عَنَّا أمتارًا قد تخطاني ولوثيار لنرى فسحب ياسِن تهوي أرضًا من على فرسها ودماؤها تتناثَرُ على وجوهِنا، كانت على يميني وشديدة القُربِ مني وكنت سأتمكن من حمايتها لو كُنت أقوى فقط.. لو امتلكتُ سِحرًا! لو امتلكتُ سِحرًا!

ـــياسِن!

صرختُ غير قادرٍ على رفع عيني من المشهد، الرجل الغامِضُ قد ظهر فجأة أمامها ليضربها بكفه المجرد ويثقب معدتها مُسقِطًا إياها أرضًا.. سقطت سليلة العائلة المالكة ومُستخدِمَة سحرِ الدم النوراني الوحيدة في مملكتنا! سقطت ياسن!

وثبتُ من على حصاني نحو الفتاةِ المستقرة أرضًا، كانت بركة دمائِها آخذة في ازدياد وما انفك جسد ياسن يرتجف عندما حملتُها بين كفي، ياسِن قوية، ياسِن واعدة.. ياسن لا يفترضُ أن تموت!

ـــلقد اغتال المِلِكُ أخي الوحيد مواريًا ذلك في معركة..

سعلت دماءً وهي تتحدث بكلماتٍ أقرب للهَمسِ وهي تواصل:

_لا تلحق به يا إيفان.. لا تلحق بأخي..

_كفى! لا تتحدثي يا ياسِن سترهقين نفسَكِ!

قلت لها وصوتي يختَنِق في حلقي، لم يكن جُرحها يبدو جيدًا بينما لم تتوقف هي عن الهمس بصوتٍ خافتٍ متخبطة في كلماتٍ كما لو أنها تهذي..

_لقد أدركت الهجوم..

قَالت:

_تفاديتُ الإصابَة القاتِلة إن لم.. الدم.. أفقِدُ الدم.. لا تمت يا إيفان!

سعلت مجددًا وزاغت عيناها الخضراوانِ عن تحديقها بوجهي، بدت كأنها على وشكِ فقدانِ وعيها بعد أن طمأنت بقطراتِ ماءٍ قليلة نار غضبي وقهري المتأجِجَة.. لن تموت ياسِن، ليس اليوم وعلى يد هذا الرجل المُستفز!

_لا تقلقي يا ياسِن فأنا هُنا لأبقى ولم ألتحق بالجيش لأموت بل لأحمي الآخرين!

_آه.. دماؤها قد لوثتنِي.

قال الرجُل وهو يخرج منديلًا أبيضًا ليمسح به دماء النائبَة التي لوثته وعيناه مركزتانِ مع لوثيار الذي يحدِقُ بي وبياسِن الملطخة بالأحمرِ وعيناهُ تكادان تفيضانِ دمعًا، لوثيار يغلي بنفسِ النارِ التي تحرقني من الداخل لكنه يفهم ويضبط أعصابه بينما أفشلُ أنا في ذلك.. بسفي الذي أقبض عليه بيدٍ تسلخت من المعارك السابقة قصدت قطع عنقِ هذا الرجل عقابًا على ما فَعله بياسن ولم أستطع منع قدميَّ من الركض نحوه بأقصى سُرعة!

_كلا يا إيفان! كلا!

صاح لوثيار وهو يثب من فرسه نحوي ناويًا إيقافي لكنني لم ألتفت له، لربما أعمانِي غضبي الذي لم أستطع السيطرة عليه أو سُقيتُ من كأس الرغبة المدمرة في الانتقام لكن الرجل

ذا الشعر الأسودِ ظل واقفًا في مكانه يرسل نظرة عابرة نحو الغيومِ الرمادية وتعلو فمه ابتسامة هادئة خبيثة.. رفعتُ السيف قاصدًا عنقه تاركًا لوثيار خلفي لا أكادُ أسمع صوته.. دار العالمُ مِن حولي وعَصف بقوة وأحسستُ لما كادَ نصلي أن يلامس عنق هذا الشخصِ أن أضلعي تتكَسرُ وأن رئتيَّ تُسحقانِ بقسوة.. عندما عاد إدراكي إليّ كنت على الأرض غير قادرٍ على الحراك بعدما تلقيتُ ضربة لم أرها حتى! كيف؟!

__إيفان؟!

صاح لوثيار وهو يتقدمُ نحو الرجل الواقف ومهما حاولتُ الردَّ عليه فلم يخرج من حلقي الصوت..

__أظننت بأن هذا الساحِرَ إن ضحى بحياته حقًا بهذه التعويذة السخيفة فسيُغلَقُ الحاجِز؟ لن يغلق الحاجِز وهذا الختم موجودٌ على جانبِ البشر أيها الأبله! حتى أنك أنجبت طفلين! أظننت أنني سأترُكك!

تلك الكلماتُ التي ذكرها الرجل قد جعلت لوثيار يستشيط قهرًا وغضبًا ولأول مرة في حياتي رأيته يصرخ ملئ فيه:

__لا تذكر طفليَّ بلسانك القذر!

__سأُدمِرُهما!

صاح الرجل وهو يضحكُ بجنونٍ ويردف:

__أنت الذي قصدتني أنا مَلِكُ الشياطين! قصدتني ولن تستطيع الخلاص طالما ختمي على يدك!

__أيها ال..

بتر لوثيار جملته وهو يرفَعُ سيفه واضِعًا إياه فوق عنقه باسمًا ثم يُردِف:

__ماذا لو مات صاحِبُ الختم؟ ها.. أستنجحُ خطتك؟!

_كلا أيها القائد..

قلت بصوتٍ بالكادِ خرج من فمي محاولًا استجماع كل قوتي للنهوضِ من على الأرض، كانت عظامي تئنُ وكل عضلة في جسدي تدعو للرحمة! لكن الرجل الذي وصف نفسه بأنه ملك الشياطين قد قال باستفزاز:

_إن مت أنت فستنتقِلُ اللعنة لأبنائك..

_كلا!

همس لوثيار وهو يفلت سيفه فجأة، ابتسم الرجل قرمزي العينينِ وتقدم مادًا ذراعه نحو عنق لوثيار الساكِن بلا حراك، غمره يأسٌ طفأ بريق عينيه الزرقاوين ولأولِ مرة أشعر بأنه غير راغبٍ في الكفاح..

_لم يكن عليَّ الانجراف وراء الحب، علمتُ أنّ وقتي في مملكة البشر قصيرٌ ولكنني سرت وراء الأملِ والحياة.. وتركتُ طفلينِ وُلِدا لأبٍ سيجلِبُ عليهما الدمارَ مِثلي..

لكن تلك اليد التي امتدت من الوحش نحو لوثيار المُفصِح عن يأسِه قد قطعتُها بنصلي وسط الدهشة التي أسرت تعابير صديقي وعدوي!

تدحرجت تلك اليدُ مخلفة وراءها دماءً سوداء حيثما استقرت وعقبها لما أحسَّ قلبي بالكارثة التي ستأخذُ روحي وجدتُ لوثيار يحولُ بيني وبينَها.. ملِكُ الشياطينِ قد غضبَ حتى برزت عروقه وروت دماؤه السوداءُ الأرضَ وامتدت يَدُه التي كانت أحدَّ من السيفِ البتارِ التي أذت ياسن سابقًا والتي كانت ستُزهِقُ روحي لولا اعتراض لوثيار الذي فدانِي بجسده.. حال بيننا وقد اخترقت يد العدو جسده تاركة ثقبًا بالكاد ظل القائدُ واقفًا معه.. هذا جرحٌ مميتٌ لا يفرق بين قوى وضعيف لكن حياتي أنا وياسِن وحياة طفلي لوثيار كلها تعتمد عليه فقط لهي أسبابٌ تدفعُ لوثيار للاستمرار واقفًا شامخًا وما كان غيرُه ليقِف..

_لنذهب..

همس الرجل مقطوعُ الذراعِ وهو يستديرُ عائدًا من حيثُ جاء، الغابة الكثيفة الشاحبة خلف الحاجِز قد بدت كما لو أنها ازدادت سوادً بعودة ملكها ولوثيار قد سار خلفه مخلفًا أثرًا من دماءٍ قانية تنزِفُ مِن جُرحٍ مُؤلم، صرختُ بصوتٍ لم يصل وقائدي لم يلتفِت عليَّ مطلقًا، عَبرَ الحاجِزَ وأُغلِقَ مِن خلفه الشق لامعًا بالسحر الأرجواني الباهي، رحل لوثيار بإرادتِه مخلفًا في ذهني عشراتِ الأسئلة وعشرات الأشياءِ التي رغبتُ في مساعدتِه بفعلها لكني لم أستطع أن أفعلها قط..

"لوثيار لم يرحل بإرادته رفقة هذا الرجل.. وكل ما تبقى باستطاعتي لأفعله هو وصيته التي أوصاني بها.. طفلاه.."

ـــياسِن؟

همستُ بَعد أن جلستُ قرب الفتاة المُصابة، جسدي يئن وقد جئتُ زاحفًا حاملًا قماشًا حاولت أن أضغط به على مكانِ جرحِ ياسن قد الإمكان وقد غمرتني الراحة لما رأيت أن نزيفها قد توقف بعد عناءٍ ولربما قد استعانت بسحرِ الدم خاصتها لتوقفه، كان جسدها باردًا ودماؤها تملأ الأرضية المغطاة بأوراقِ الأشجارِ الجافة.. من السماءِ البعيدة وصلت قطراتُ أمطار أكتوبر بينَ السماءِ والأرض مجددًا.. تنفست ياسِن ومن على بُعدٍ غربًا ارتفع غبار الخيولِ القادمة باتجاهنا.. أظنه قائد الفرسانِ الملكيين الذي وَعد بأن يلاقينا في هذه المنطقة.. جاء بعد أن حُرِرت المدينة الجنوبية وسقط الأعداء!

"رباه.. لقد أُنقِذنا!".

النهاية.